

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

حين يقفُ الوحيُّ وحيداً أمام ضجيج العالم

رحلة في حُزنِ الرسالة، ويقين المستضعفين، وسقوط الأقنعة

المؤلف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

حين يقف الوحي وحيداً أمام ضجيج العالم
رحلة في حزن الرسالة، ويقين المستضعفين، وسقوط الأقنعة
المؤلف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة المنهجية

السورة التي تكشف ما وراء المشهد

ليست سورة الشعراء سجلاً لوقائع مضت، ولا معرضاً تتجاور فيه قصص الأنبياء كما تتجاور الصور على جدار قديم؛ إنها سورةٌ تتحرك في أعماق الصراع الإنساني الدائم: الصراع بين الحقيقة حين تأتي عاريةً من زخارف القوة، والباطل حين يجيء محملاً على العروش والجماهير والمصالح والضجيج.

إنها لا تسرد التاريخ، بل تكشف قانونه.

فالوجوه تتغير، والأسماء تبدل، والمدن تنهض ثم تغيب، ولكن النفس التي قالت لموسى: الاستعلاء لنا، هي النفس نفسها التي تستثقل الحق كلها هدد امتيازاتها. والقلب الذي التفت إلى إبراهيم مستهزئاً هو القلب نفسه الذي يعبد اليوم ما ورثه عن الناس، ولو لم يكن حجراً منصوباً في معبد. والترف الذي أغرى قوم عاد وثمود بالبقاء هو الترف نفسه حين يقنع الإنسان المعاصر بأن ما بناه بيده أقوى من أن تمسه السنن. والمنطق الذي واجه نوحاً وهوداً وصالحاً ولوطاً وشعيباً لم يمت؛ إنه يتناسل في كل عصر، ويرتدي لكل زمن لغته وثيابه.

ولهذا نكرر في السورة العبارة المهيبة:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةًٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَھُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

وكانها نبضٌ خفيٌّ يعود بعد كل قصة، ليعيد القلب إلى مركز اليقين. فالناس قد يكذبون، والطغاة قد يستعلون، والدعاة قد يطول انتظارهم، ولكن خاتمة المشهد لا تخرج عن اسمين: العزيز الرحيم.

عزيزٌ فلا تُغلب كلمته، ولا يفلت من سلطانه متجبر، ولا يستطيع باطلٌ - مهما انتفخ - أن يغير النهاية التي كتبها الله.

ورحيمٌ فلا يترك أولياءه في الطريق، ولا يضيع دمة نبي، ولا تنهيدة مستضعف، ولا خطوة مهاجر خرج من وراء ظهره الخوف ومن أمامه المجهول.

إن اجتماع العزة والرحمة هو السر الروحي للسورة كلها: عزةٌ تهدم الباطل، ورحمةٌ تحمل أهل الحق فوق أنقاضه.

وإذا كانت السورة قد سميت سورة الشعراء، فإن الشعراء لا يظهرون إلا في خاتمتها؛ لأن الاسم هنا كاشفٌ لسؤال السورة الأكبر: من الذي يملك الكلمة؟ ومن الذي يمنحها صدقها؟ أي الكلمة التي تثير الخيال ثم تضل الطريق، أم الكلمة التي تنزل من السماء فتهدي القلب إلى الحقيقة؟ أهو البيان الذي يسكر الناس بصوره، أم البيان الذي يوقظهم من أوهامهم؟

إن السورة تبدأ بالقرآن وتنتهي بالشعراء؛ وبين البداية والنهاية ميدانٌ كامل نتواجه فيه الكلمة الموحاة مع الكلمة المصنوعة، والحقيقة مع التخيل، والرسالة مع الدعاية، والنبي مع الساحر، والبرهان مع الحشد، واليقين الهادئ مع الصخب الذي يحاول أن يبدو حقيقة.

وسنسير في هذه السورة لا بوصفنا مشاهدين لقصص بعيدة، بل بوصفنا جزءًا من امتحانها؛ لأن في داخل كل إنسان موسى يخاف، وفرعون يستكبر، وإبراهيم يبحث

عن الصفاء، وأصناماً تطلب أن تتحطم، وبحراً لا ينفلق إلا عند اللحظة التي يظن فيها العقل أن النجاة مستحيلة.

المحطة الأولى

الحزنُ الذي كاد يستهلك قلبَ النبوة

تبدأ السورة بحروفٍ مقطعة تفتح في جدار المألوف نافذةً على الغيب:

(طسّم ۞ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ).

ليس الكتاب غامضاً في مصدره، ولا مضطرباً في وجهته، ولا ملتبساً في غايته؛ إنه المبين: يكشف الحقائق، ويفصل الحدود، ويضع النور على وجوه الأشياء حتى لا يبقى للباطل إلا أن يهرب إلى التويه.

ولكن المفارقة المؤلمة أن وضوح النور لا يعني أن كل عين ستفتحه له.

قد تكون الحقيقة مبينة، ويظل الإنسان عنها معرضاً؛ لأن الأزمة ليست دائماً في غموض البرهان، بل قد تكون في إرادة القلب. فكم من إنسان لا تنقصه الحجة، وإنما تنقصه الشجاعة ليقبل ما تهدمه الحجة في داخله! وكم من نفس رأت الحق واضحاً، لكنها أحست أن الاعتراف به سيكلفها صمناً من أصنام المنزل أو العادة أو الشهوة، فاختارت العمى لا لأن الضوء ضعيف، بل لأنه شديد الكاشفية.

وهنا تلتفت السورة إلى قلب النبي ﷺ:

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ).

ما أوجع هذه الآية، وما ألطف العناية التي تسكنها!

إنها لا تصف حزناً عابراً، بل حزناً يكاد يبلغ بصاحبه حدَّ إهلاك النفس. فكلمة (بَاخِعٌ) تحمل معنى الاستهلاك الشديد؛ كأن النبي ﷺ كان ينفق من روحه على إعراض قومه، ويحمل كل قلب أغلق بابه كأنه خسارة شخصية تمزق قلبه.

لم يكن غضبه لنفسه، ولا حزنه لأنهم لم يعترفوا بمكائنه، ولا ألمه لأنهم أساءوا إليه؛ بل كان يتوجع لأنهم يمشون إلى الهلاك وهم يظنون أنهم يحسنون السير. كان يرى ما لا يرون: يرى نهاية الطريق وهم مأخوذون ببريق أوله، ويرى النار وراء الشهوة، والخراب وراء الاستكبار، والحسرة كامنة في أحشاء الضحك الساخر.

وهكذا تكون الرحمة النبوية: ليست عاطفة لينة تقف عند حدود المواساة، بل بصيرة تتألم لمصير الإنسان قبل أن يراه الإنسان.

لقد آذوه، ومع ذلك حزن عليهم. ضيقوا عليه، وسخروا من الوحي، واتهموه، ثم لم يتحول قلبه إلى حجر. لم يقل: فليذهبوا إلى ما اختاروا. ظل متعلقاً بنجاتهم، كأن كل واحد منهم أمانة يخشى أن تضيع من يده.

وهذه منزلة لا يبلغها إلا قلب طهره الله من حظ النفس؛ لأن الإنسان العادي إذا أؤذي انشغل بجرحه، أما صاحب الرسالة فينشغل بمصير من جرحه. يرى في المعتدي إنساناً هزيمته شهوته، وفي المكذب روحاً احتلها الوهم، وفي الساخر مريضاً يضحك من الدواء.

لكن الله لا يريد للداعية أن يحترق حتى الرماد وهو يحاول أن يمنح الآخرين النور. ولذلك جاءت الآية تسليّةً وتصحيحاً معاً: عليك البلاغ، وليس عليك أن تقتحم القلوب اقتحاماً، فالقلب أرض لا يملك مفاتيحها إلا خالقها.

ثمة حزنٌ شريف يولد من الرحمة، لكنه إذا تجاوز حدّه أوشك أن يتحول إلى استنزاف. والدعوة لا تطلب من صاحبها أن يموت كمدًا على كل معرض، بل أن يظل وفيًا للحق، رحيماً بالخلق، سالكًا إلى حكمة الله. إنك لا تتقذ الناس بقوة حرصك وحدها، ولا تحملهم إلى الهداية على كتفك؛ أنت تفتح النافذة، أما إدخال النور إلى القلب فمن شأن الله.

وفي هذا عزاء لكل صاحب رسالة يرى كلماته تمر ولا تجد الصدى الذي يرجوه، ولكل مصلح يتألم لأن الضجيج أكثر انتشارًا من الحكمة، ولكل والد يرى نصيحته تتكسر عند أبواب أبنائه، ولكل قلب صادق يؤلمه أن يرى من يجب يسير إلى ما يؤذيه.

تقول له السورة: لا تجعل قلة الاستجابة حكمًا على صدق الطريق، ولا تجعل إعراض الناس يأكل روحك. قد يكون البذر صحيحًا، ولكن موسم الإنبات لم يأت بعد. وقد تصيب الكلمة قلبًا ثم تختفي فيه سنوات، حتى إذا حان موعدُها خرجت من بين أنقاض الغفلة شجرةً من يقين.

لو شاء الله لأحني أعناقهم... ولكنه يريد قلوبهم

يقول الله تعالى:

(إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ).

الله قادر أن ينزل من دلائل قدرته ما يجعل الأعناق تنحني اضطراراً، وما يحو من النفس كل قدرة على المكابرة. يستطيع أن يأتيهم بآية حسية تقتحم عليهم عالمهم، فتساقط أمامها حججهم ويغدو الإنكار مستحيلاً.

لكن المقصود ليس رقاباً منحنية وقلوباً شاردة.

الإيمان الذي يريده الله ليس حركة جسد قهرته المعجزة، بل حركة روح أبصرت الحق فاخترته. فلاستسلام القسري لا يكشف معدن الإنسان، ولا يصنع منه عبداً محباً؛ إنما يجعله مخلوقاً مذعوراً أمام قوة لا يستطيع دفعها.

إن الله قادر أن يقهر العالم على الطاعة، ولكنه شاء أن تكون الدنيا دار اختيار؛ لأن للإنسان كرامة لا تظهر إلا حين يقف بين طريقين ثم يمضي إلى الله بإرادته. ومن هنا كان الوحي نداءً لا قيداً، وبرهاناً لا سوطاً، ونوراً يُعرض على العين لا يداً تمسك بالأس وتديره نحو السماء.

غير أن النفوس التي تدمن الإعراض لا تتعامل مع الوحي باعتباره فرصة نجاة، بل باعتباره صوتاً يجب إسكات أثره:

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ).

تأمل هذا اللطف الموجه في قوله: (مِنَ الرَّحْمَنِ).

الذي يرسل إليهم الذكر ليس مترصاً بهم، بل الرحمن. وما يأتيهم ليس ثقلاً أريد به تعذيب حياتهم، بل ذكرٌ يعيدهم إلى حقيقتهم التي نسوها. ومع ذلك يعرضون.

إنهم لا يهربون من عقاب، بل يهربون من رحمة. ولا يصدون عن عدو، بل عن رب يريد أن ينقذهم من أنفسهم.

وذلك من أعجب أمر الإنسان: قد يقاوم ما يشفيه، ويتمسك بما يقتله، ويحسب الرحمة قيداً لأنها تطلب منه التخلي عن شهوته. كالمريض الذي يغضب من يد الطبيب لأنها تمتد إلى موضع الألم، ولا يدري أن اليد لم تصنع الجرح، وإنما جاءت لتكشفه.

والإعراض هنا ليس مجرد عدم سماع؛ إنه موقف نفسي مركب. فقد يسمع الإنسان الآية بأذنه، لكنه يزيح قلبه عنها قبل أن تكتمل. يخشى أن تمسه، أن تعيد تسمية الأشياء في حياته، أن تقول له إن بعض ما يحبه لا يرضي الله، وإن بعض ما يفتخر به ليس إلا قناعاً، وإن الطريق الذي ازدحم بالسائرين قد يكون طريقاً إلى الهاوية.

إنه لا يخاف غموض القرآن؛ بل يخاف وضوحه.

ثم تنتقل السورة من الإعراض إلى التكذيب، ومن التكذيب إلى السخرية:

(فَقَدْ كَذَبُوا فَسَيَاتِهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

لقد ظنوا أن استهزاءهم أنهى القضية، وأن تحويل الحق إلى مادة للسخرية يسلبه حقيقته. وهذه حيلة قديمة في النفس والمجتمع: حين يعجز الإنسان عن مواجهة الفكرة، يحاول أن يضحك منها؛ لأن الضحك قد يمنحه لحظة وهمية يشعر فيها أنه أعلى من المحجة.

لكن الحقيقة لا تموت حين يضحك منها الناس.

قد تصبح النبوءة التي هزؤوا بها خبراً يعيشونه، وقد يتحول الوعيد الذي عدّوه خيالاً إلى واقع يحيط بهم. وعندئذ لا يعود الخبر شيئاً يُسمع، بل شيئاً يُذاق.

إن التعبير القرآني عجيب: (فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ). كأن ما استبعدوه سيتحول إلى رسول يقصدهم، وإلى خبر يعثر عليهم مهما اختبئوا في إنكارهم. كانوا ينتظرون الأنباء من بعيد، فإذا بهم يصبحون هم مادة النبأ.

المحطة الثالثة

الأرض التي يمرون فوق آياتها ولا يرون

بعد أن كشفت السورة إعراضهم عن آيات الوحي، فتحت أمامهم كتاباً آخر لا تطوى صفحاته: كتاب الأرض.

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ).

الأرض ليست تراباً صامتاً؛ إنها حجة تنفس.

تشق الحبة الصغيرة جدار الظلمة، وترفع فوق رأسها كتلة التراب، ثم تخرج ساقاً لينة تبدو أضعف من أن تزاحم حجراً، فإذا بها تشق طريقها إلى الضوء. من أودع فيها معرفة الاتجاه؟ من علم الجذر أن يهبط، والغصن أن يصعد؟ من وزع الألوان في الزهرة، والطعم في الثمرة، والرائحة في العطر، والدواء في الورقة؟

كل نبتة رسالة مختومة باسم الخالق، ولكن الإنسان قد يعيش بين الرسائل ولا يقرأها.

إنه يرى الأرض كل يوم، ولذلك يكاد يفقد الدهشة منها. والألفة حجاب خفي؛ فما يتكرر أمامنا نظنه عادياً، مع أن التكرار لا يسلب المعجزة إعجازها. شروق الشمس ليس أقل إدهاشاً لأنه يحدث كل صباح، ونبض القلب لا يصير أمراً هيناً لأنه لازمنا منذ الميلاد.

لقد علمتنا الحياة الحديثة أن نعرف أسماء الأشياء، لكنها لم تعلمنا دائماً كيف نندesh بها. نعرف تركيب النبات، ونحلل الماء، ونفسر دورة الإنبات، ولكن معرفة الكيفية لا تجيب عن سر الوجود: من أنشأ القوانين؟ ومن منح المادة قابليتها للحياة؟ ومن أخرج من التراب الأصم هذا الجمال الكريم؟

والقرآن لا يعادي المعرفة، بل ينتشلها من السطح إلى المعنى. لا يريدك أن تنظر إلى الزهرة دون أن تعرف بنيتها، ولا أن تعرف بنيتها دون أن ترى فيها أثر القدرة.

ثم تأتي اللازمة الأولى في السورة:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً^ط وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَھُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

ها هنا يُزرع مفتاح الرحلة كلها: ليست الكثرة معيار الحقيقة.

قد تكون الآية ظاهرة، ويبقى الأكثرون خارج نورها. وقد يقف النبي وحده تقريباً، بينما تمتلئ الساحات بالمكذبين. لكن كثرة الأقدام لا تصنع صراطاً مستقيماً، كما أن قلة السائرين لا تجعل الطريق ضلالاً.

إن الحق لا يستمد حقايقته من عدد المصنفين له؛ إنه حق لأن الله قاله.

ومنذ هذه اللحظة تبدأ السورة في عرض مواكب الأنبياء، لا لتقول إنهم عاشوا ثم مضوا فحسب، بل لتكشف أن الداعية قد يكون قليل العدد وهو ممتلئ بالقوة، وأن الطاغية قد يكون محاطاً بالجنود وهو واقف على حافة السقوط.

وسيكون أول الخارجين إلى ساحة المواجهة موسى عليه السلام: رجلٌ يحمل في داخله خوفاً بشرياً، ويرسل إلى طاغية يملأ الأرض صخباً. ومن بين خوف النبي واستكبار الملك ستولد واحدة من أعظم حقائق السورة:

أن الله لا يشترط فيمن يحمل رسالته أن يكون خالياً من الخوف؛ بل يكفي أن يكون خوفه تحت سلطان يقينه.

المحطة الرابعة

حين ينزل التكليف على موضع الخوف

(وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۖ أَلَا يَتَّقُونَ).

يبدأ مشهد موسى عليه السلام بنداء من السماء، لكنه يتجه به إلى أكثر بقاع الأرض اختناقاً: إلى فرعون.

لم يدع موسى إلى خلوة آمنة يكتمل فيها صفاءه، ولا إلى قوم ينتظرون نبياً بقلوب مفتوحة؛ بل أمر أن يمضي إلى مركز الطغيان نفسه، حيث يجلس الظلم على العرش، وتعمل الدولة كلها على حمايته، ويصاغ وعي الجماهير تحت عينيه.

هكذا تأتي الرسالة أحياناً: لا تنزل على الإنسان لتمنحه السكينة وحدها، بل لتأخذه من سكينته إلى موضع التكليف. فالإيمان ليس كهفاً نهى به إلى من العالم، وإنما نور نخله إلى أكثر زواياه ظلمة.

لكن القرآن لا يصنع من الأنبياء تماثيل صلبة لا تخاف؛ بل يكشف بشرتهم ليعلمنا أن الشجاعة ليست غياب الخوف، وإنما طاعة الله مع وجوده:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٠١﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ ﴿١٠٢﴾ وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ).

لقد وضع موسى مخاوفه كلها بين يدي الله.

يخاف أن يكذب، وأن يضيق صدره، وأن يتعثر لسانه، وأن يُستدعى ماضيه فيقتل بالرجل الذي وكره ففقد عليه. إنها أربعة أثقال تجتمع على قلبه: ثقل الرفض، وثقل الانفعال، وثقل التعبير، وثقل الماضي.

وهذه خريطة دقيقة للنفس حين تواجه مهمة أكبر من طاقتها الظاهرة. تخشى حكم الناس عليها، ثم تخشى أن تفقد توازنها، ثم تذكّر نقائصها، ثم يخرج الماضي من مخبئه ليقول لها: أنت لست أهلاً لما دُعيت إليه.

كم من إنسان منعه ماضيه من أداء رسالته! يظل خطأ قديم يطارده حتى يظن أن صفحة واحدة من حياته ألغت الكتاب كله. لكن الله الذي يعلم الماضي هو الذي كلف موسى. لم تكن الحادثة غائبة عن علمه، ولم يكن ضعف اللسان مجهولاً لديه، ومع ذلك قال له: اذهب.

فقد يختارك الله لمهمة لا لأنك لم تنكسر قط، بل لأنك عرفت الانكسار؛ ولا لأن ماضيك بلا عثرة، بل لأن العثرة نزعت منك غرور القوة. وربما كان ما تراه نقصاً فيك باباً إلى صدق افتقارك، حتى تدخل على الله بلا دعوى، وتخرج إلى الناس بلا استعلاء.

ولم ينكر موسى خوفه، ولم يتجمل أمام ربه بصورة البطل الذي لا يهتز. الأنبياء أصدق الناس مع الله؛ ولذلك يودعون عنده ضعفهم كما يودعون رجاءهم. فالخوف الذي يُخفي في النفس يتضخم، أما الخوف الذي يُرفع إلى الله فيدخل في كنف التدبير. وجاء الجواب قصيراً قاطعاً:

(قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ).

(كَلَّا): لن يكون الأمر كما رسمه الخوف في خيالك.

ما أشد حاجة القلب إلى هذه الكلمة حين تستبد به الاحتمالات! فالمخاوف بارعة في كتابة النهايات قبل وقوعها، تصور للإنسان أن الطريق قد حُسم، وأن الخطر واقع لا محالة، وأن ضعفه أقوى من غناية ربه. فتجيء (كَلَّا) الإلهية لتمزق السيناريو الذي نسجه القلق.

ثم لم يقل الله: إني معكما فحسب، بل قال: (إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ).

استعمل الجمع لأن ساحة المواجهة ستضم موسى وهارون وفرعون وقومه؛ والله يسمع كل كلمة فيها. يسمع دعوة الحق، ومكر الباطل، وهمس الخائفين، وصيحة المستكبر. لن تضع كلمة في الضجيج، ولن يكون النبيان وحيدان في القصر وإن أحاطت بهما العيون.

ليس أعظم ما يحمله الداعية بلاغة لسانه، بل معية ربه.

فإذا كانت المعية حاضرة، لم يعد ضعف الوسيلة حُكماً على النتيجة. عصا الراعي قد تُهزم بها إمبراطورية، واليد التي خرج بها صاحبها خائفاً قد تعود لتقود أمةً إلى الحرية، والرجل المطلوب للقتل قد يدخل القصر نفسه رسولاً من رب العالمين.

المحطة الخامسة

كلمة من السماء في قصرٍ من ادعى العلو

(فَأْتِيََا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٠﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ).

دخل موسى وهارون على فرعون بلا جيش ولا مال ولا نفوذ، ولكنهما حملاً تعريفاً يقلب بنية السلطة كلها: (رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

فرعون يحكم مصر، أما الذي أرسلهما فهو رب العالمين.

بهذه العبارة وُضع الملك الأرضي في حجمه الحقيقي. مهما اتسعت مملكته، فهي جزء صغير من عالم يملكه الله. ومهما ارتفعت ألقابه، فهو عبدٌ في كون الرب. ومهما أحاط نفسه بالمهابة، فإن رسولاً واحداً يستطيع بكلمة التوحيد أن ينزع عنه الهالة التي صنعها الخوف.

لم يكن طلب موسى مجرد التماس سياسي: (أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)؛ بل كان إعلاناً أن الإنسان ليس ملكاً للطاغية. فلا استبداد لا يكتفي بإدارة الأجساد، وإنما يحاول امتلاكها، حتى يتعامل مع الشعوب كأنها جزء من أثاث المملكة.

وجاء موسى ليعيد الإنسان إلى ماله الحق، وليقول لفرعون: هؤلاء ليسوا عبيدك حتى تقرر مصيرهم؛ إنهم عباد الله.

لكن فرعون لم يناقش القضية، بل قتش في ملف المتكلم:

(قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٠﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ).

هذه من أقدم طرائق الباطل: حين يعجز عن رد الحجة، يحاكم صاحبها.

لم يقل فرعون: ما الدليل على رسالتك؟ بل قال: ألم نعطك مأوى؟ ألم تعش في قصرنا؟ ثم استدعى الحادثة القديمة ليضع موسى في قفص الاتهام.

فالطاغية يعد كل خير قدمه للإنسان صكًا لا متلاك صوته. يريد للنعمة أن تتحول إلى سلسلة، وللرعاية أن تصبح دينًا أبدياً يمنع المتلقي من الاعتراض على الظلم. وكأن موسى مطالب بأن يسكت عن استعباد أمة لأن القصر آواه طفلًا!

ومنطق فرعون ما يزال حيًّا: يذكرك صاحب السلطة بما منحه لك، لا ليوظ الشكر، بل ليصادر حريتك الأخلاقية. يريد منك أن تجعل الإحسان الشخصي ستارًا يغطي الجريمة العامة.

أما موسى فلم ينكر ماضيه، ولم يزور الوقائع:

(قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿١١﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُجًّا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ).

ما أصدق هذا الوقوف!

قال: نعم، فعلتها في حال لم أكن فيها على الهدى الكامل في تقدير العاقبة؛ ثم فررت خوفاً منكم. لم يتصنع بطولة زائفة، ولم يقل إن الخوف لم يمسه. اعترف بالفعل والخوف، لكنه لم يسمح لماضي أن يلغي الحاضر: (فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ).

الإنسان المؤمن لا ينكر صفحاته القديمة، ولكنه لا يقبل أن يُحبس فيها. لقد مر بها، وتعلم منها، ثم أخرجته الله إلى مقام جديد. والتوبة ليست إنكاراً لما كان، بل تحريراً للإنسان من أن يبقى ما كان.

ثم قلب موسى منطق الامتنان على فرعون:

(وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ).

أي فضل هذا الذي يتباهى به، وقد استعبدت قومي حتى اضطرت أُمِّي أن تلقي بي في اليم خوفاً من جنودك؟ إن وجود طفل من بني إسرائيل في قصرِكَ لم يكن شاهداً على رحمتك، بل كان ثمرةً من ثمار جريمتك. أنت الذي صنعت الخوف الذي أخرجني من بيت أُمِّي، ثم جئتُ تَمُنُّ عليّ بأنني نشأتُ في بيتك!

هكذا يكشف الوعي النبوي التزييف السياسي: قد يأخذ الظالم أثراً صغيراً من آثار ظلمه، فيعيد تقديمه بوصفه فضيلة. يصنع المأساة، ثم يتباهى بأنه خفف عن فرد واحد بعض نتائجها.

ولكن موسى لم يسمح له أن يعزل الحكاية الفردية عن سياقها الجماعي. أعاد نعمته المزعومة إلى أصلها: لقد أكرمت طفلاً بعد أن أذلت شعباً، فلا تجعل الاستثناء شاهد براءة على الجريمة.

من رب العالمين؟

حين سقط سلاح الماضي من يد فرعون، انتقل إلى السؤال الذي يهز عرشه من أساسه:

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ).

لم يقل: من رب العالمين، بل قال: (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)؛ سؤالٌ تفوح منه رائحة الاستنكار، كأن الأمر الذي يتحدث عنه موسى لا يستحق حتى أن يُسأل عنه سؤال العاقل: أي شيء هذا الذي تسميه رب العالمين؟

إن الطغيان يفسد اللغة كما يفسد الحياة. فالذي اعتاد أن يرى نفسه أعلى مرجع، يصبح وجود رب فوقه فكرةً تستفزه. ليست مشكلة فرعون أنه لم يسمع حجة، بل أن الحجة تهدم تعريفه لنفسه.

أجابه موسى:

(قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِنَّكُمْ مُوقِنِينَ).

رفع موسى سقف القصر حتى اتصل بالسما، ووسع المشهد حتى غمرت الأرض عرش فرعون. فما هذا الملك الصغير أمام ملك السماوات والأرض وما بينهما؟

إن موسى لا يعرف الله بحدّ يحصره - تعالى الله عن ذلك - وإنما يدل عليه بآثار ربوبيته. فالكون كله شاهد، والوجود كله آية، وكل ما يحيط بفرعون يقول له: لست رباً؛ لأنك لم تخلق سماءً، ولم تبسط أرضاً، ولم تنظم حركة ذرة.

لكن فرعون لم يملك جواباً، فالتفت إلى من حوله:

(قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ).

إنها سخيرة يراد بها تحريك الجمهور بدل تحريك العقل. فالطاغية حين تضيق به الحجة يستدعي ضحك الحاشية. لا يرد على الفكرة، بل يصنع حولها جواً من الاستهزاء حتى ينجل الناس من الإنصات إليها.

غير أن موسى لم يدخل في معركة جانبية، بل عمق البرهان:

(قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ).

لم يعد الحديث عن السماوات البعيدة فحسب، بل عنكم أنتم وعن آبائكم. رب العالمين ليس فكرة كونية منفصلة عن حياتكم؛ إنه رب وجودكم وتاريخكم وأصلكم. وقبل أن يكون لفرعون عرش، وقبل أن تُبنى هذه الحضارة، كان الله رب الآباء الأولين.

وهذه الضربة تهدم وثنية الموروث؛ لأن فرعون يستمد بعض شرعيته من التاريخ، بينما يقول موسى: التاريخ نفسه مخلوق لله، وآباؤكم الذين تستندون إليهم كانوا عبيده.

فلم يجد فرعون إلا التشخيص النفسي:

(قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ).

حين لا يستطيع الباطل أن يجرح الفكرة، يجرح عقل صاحبها.

إن وصف المصلحين بالجنون ليس حكماً طبيّاً، بل آلية دفاع جماعية؛ لأن المجتمع إذا اعترف بعقل صاحب الرسالة اضطر إلى مراجعة نفسه. أما إذا نعته بالجنون، فقد منح نفسه إعفاءً من التفكير.

ومضى موسى لا يلتفت إلى الشتيمة:

(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا^ط إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ).

في البداية قال: (إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ)، وهنا قال: (إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ). فاليقين يرى الدلالة في السماوات والأرض، والعقل يرى انتظام الحركة بين المشرق والمغرب. كل صباح تخرج الشمس من جهة لا يملك فرعون تقديمها ولا تأخيرها، وكل مساء تغرب دون أن تستأذن عرشه. من كان ربّاً فليغيّر مسار الشمس.

هنا انتهت قدرة فرعون على المجادلة، فانتقل من السخرية إلى السجن:

(قَالَ لِّئِنْ اتَّخَذَتِ إِلَٰهًُا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ).

وهذه لحظة كاشفة: حين يعجز الاستبداد عن الإقناع، يكشف عن قضبانه.

إن السجن في منطق الطغاة ليس مكاناً لعقوبة الجريمة، بل أداة لحماية الفكرة الحاكمة من الفكرة الحرة. يريد فرعون أن يحبس موسى لأن كلمته أوسع من القصر، ولأن السؤال الذي أطلقه صار يتسلل إلى عقول الواقفين: إذا كان الله رب المشرق والمغرب، فمن يكون هذا الجالس على العرش؟

وقد يستطيع الطاغية أن يسجن الجسد، لكنه لا يستطيع أن يعيد السؤال إلى فم صاحبه بعد أن خرج منه.

كل حقيقة صادقة تحمل في داخلها قابلية العبور من وراء القضبان. وما أكثر الكلمات التي دخل أصحابها السجون، ثم خرجت هي تجوب البلاد، بينما بقي سجانوها محبوسين في خوفهم حتى سقطوا.

المحطة السابعة

العصا التي ابتلعت هيبة القصر

قال موسى أمام التهديد:

(أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ).

لم يهرب من السجن إلى التراجع، بل انتقل إلى البرهان. كأنما يقول: أأسجنني ولو حملت إليك ما يكشف الحقيقة كشفًا لا يبق لي تهديدك معنى؟

قال فرعون:

(فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ).

كانت العصا شيئًا عاديًا في يد راعٍ عائد من مدين، لكنها حين اتصلت بأمر الله تجاوزت طبيعتها المألوفة. وهذا منطق يتكرر في طريق الرسائل: لا تنظر إلى ما في يدك بمعزل عن أمرك أن تلقيه.

قد تكون وسيلتك صغيرة، لكن الله ليس صغيراً.

العبرة ليست بضخامة ما تحمله، وإنما بحقيقة الجهة التي تعتمد عليها. كم من عصا بدت للناس هزيلة ثم ابتلعت باطلاً عظيماً، وكم من إمبراطورية ملأت الأبصار ثم عجزت أمام رجل لا يملك إلا يقينه!

رأى فرعون الآية، لكنه لم يسأل نفسه: ما مصدرها؟ بل سارع إلى إعادة تأويلها بما يحجي سلطانه:

(قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۖ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ).

قبل لحظات كان موسى في زعمه مجنوناً، والآن صار ساحراً عليمًا. فالتهمة لا يلزمها الاتساق؛ يكفي أن تؤدي وظيفتها في تخويف الجمهور.

ثم حوّل فرعون قضية التوحيد إلى تهديد للأمن والأرض: (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ).

وهذه من أخطر حيل الاستبداد: حين يُطالب بإطلاق المظلومين، يوهم الناس أن المطالبة تهدد الوطن. يخلط بقاء الأرض ببقاء حكمه، حتى يبدو الاعتراض عليه عدواناً على البلاد نفسها.

لم يقل موسى إنه يريد إخراج المصريين من أرضهم، بل طلب تحرير بني إسرائيل؛ لكن فرعون أعاد صياغة الرسالة، لأن الجماهير إذا خافت فقدت قدرتها على الفحص. والخوف يصنع للطاغية ما لا تصنعه الحجة: يجعل الناس يدافعون عن قيودهم وهم يظنون أنهم يدافعون عن أوطانهم.

والأعجب قوله: (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ).

الذي كان يدعي مقام الربوبية صار يستشير حاشيته! وما أسرع ما تهتز الآلهة الزائفة حين تلا مسها آية واحدة. كان يأمرهم، فإذا به يسألهم ماذا يأمرهم. لقد بدأت العصا تبتلع هيئته قبل أن تبتلع جبال السحرة.

واقترح الملأ تأجيل موسى وجمع السحرة:

(قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٠٠﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ).

وهكذا اختار الباطل معركته التي يظن أنه يتفوق فيها: سيجمع الخبراء، ويحشد الجمهور، ويحدد الموعد، ويقيم المشهد تحت عينه.

لكن الطغيان لا يعلم أن تديره، حين يدخل في قدر الله، قد يتحول إلى الطريق الذي يقوده إلى انكشافه الأكبر. لقد أراد فرعون أن يجعل المواجهة عامة ليهزم موسى أمام الناس؛ فجعل الله اجتماع الناس منبراً تظهر عليه الآية، ويسجد فوقه أعلم القوم بالسحر.

إن الباطل قد يحشد بنفسه الشهود الذين سيشهدون سقوطه.

حين يُحشدُ الضجيجُ لمواجهة الحقيقة

(جُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٠٠﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿١٠١﴾ لَعَلَّكُمْ تَتَّبِعُونَ السَّحَرَةَ إِنَّ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ).

لم يترك فرعون شيئاً للصدفة. اختار الموعد، وجمع الخبراء، واستدعى الناس، وصنع للمواجهة جمهوراً واسعاً. أرادها مظاهرة كبرى للقوة؛ لأن السلطة التي تخشى الحقيقة لا تكتفي بالرد عليها، بل تحاول أن تحاصرها بمشهد نفسي يجعلها صغيرة في عين الناس.

السحرة كثيرون، وموسى وأخوه رجлан. الدولة وراء السحرة، وموسى مطار د قديم عاد يحمل عصاً. الحشود تنتظر انتصار القوة المألوفة، والإعلام الفرعوني سبق المواجهة بتحديد النتيجة التي يريد ها: (لَعَلَّكُمْ تَتَّبِعُونَ السَّحَرَةَ إِنَّ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ).

لم يقل الناس: لعنا تتبع الحق إذا ظهر، بل قالوا: لعنا تتبع السحرة إن غلبوا. لقد حسم الانتماء قبل النظر في البرهان؛ فلم يعودوا باحثين عن الحقيقة، بل مشجعين لفريق السلطة.

وهنا تكشف السورة مرضاً عميقاً في النفس الجمعية: قد تتحول القضايا الكبرى إلى مباريات، فينحاز الإنسان إلى الجهة التي اعتادها، ثم لا يرى من الوقائع إلا ما يؤكده انخيازه. لا يسأل: من الصادق؟ بل يسأل: من المنتصر؟ كأن الغلبة وحدها تصنع الحقيقة، وكأن كثرة الجماهير قادرة على تغيير جوهر الأشياء.

أما السحرة فقد دخلوا الميدان وهم أبناء النظام، يتحدثون بلغته، ويحملون قيمه:

(فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرٌ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٠٠﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ).

إنهم لا يسألون عن الحق، بل عن الأجر. علاقتهم بالمشهد علاقة منفعة: سنبذل مهارتنا، فما الثمن؟

لكن فرعون يعلم أن المال وحده لا يكفي لصناعة الولاء؛ فأضاف إليه إغراء القرب: (وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ).

فالطغيان يبني حوله طبقة لا تعيش على الأجور وحدها، بل على لذة الاقتراب من المركز. والقرب من السلطان يمنح النفس المخدوعة شعوراً بأنها خرجت من عامة الناس، وصارت جزءاً من الهيبة. وهكذا يبيع الإنسان معرفته مرتين: مرةً للمال، ومرةً للمكانة.

كان السحرة خبراء في صناعتهم، لكن خبرتهم لم تحررهم بعد من عبودية المكافأة. كانوا يعرفون كيف يخدعون الأبصار، ولم يكونوا يعرفون أن بصائرهم نفسها واقعة تحت سحر أشد: سحر الذهب والقرب.

سجدة واحدة هدمت عمراً من الزيف

(قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلقُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ).

كشف قسمهم حقيقة اعتمادهم: (بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ).

كان فرعون قبلتهم النفسية، ومصدر ثقتهم، والاسم الذي يستمدون منه شعور الغلبة. لم يروا ما معهم إلا في ظل عرشه، ولم يتصوروا قوة تعلو قوته.

ثم ألقى موسى عصاه:

(فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ).

لم تقل الآية: تلقف حبالهم وعصيتهم فحسب، بل قالت: (مَا يَأْفِكُونَ)؛ كأن العصا لم تبتلع أدوات السحر وحدها، بل ابتلعت الإفك الذي أُقيم عليها، والزيف الذي صنعه الخداع، والدعوى التي احتمت بها السلطة.

وهذا هو الفرق بين الحق والباطل: الباطل يحتاج إلى إعداد المشهد، وترتيب الزوايا، وصناعة الوهم في عين الناظر؛ أما الحق فيدخل فينكشف به ما كان مستوراً. لا يضيف خداعاً أقوى إلى خداع، بل يزيل الخداع من أصله.

وفي لحظة قصيرة انتقل السحرة من قمة الثقة إلى السجود:

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ).

قالت السورة: (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ)، ولم تقل: فسجدوا. كأن الحقيقة حين اقتضت قلوبهم طرحهم على الأرض، فلم يملكو أمام جلال اليقين إلا أن يخروا ساجدين.

إنهم أعرف الناس بالحد الفاصل بين المعجزة والسحر؛ حيث رأى الجمهور مشهداً مدهشاً، رأى السحرة حقيقة لا يمكن تفسيرها بأدوات مهنهم. والعلم - حين يخلص من سلطان الهوى - يكون أسرع الطرق إلى السجود؛ لأن الخبير يدرك من موضع تخصصه أين تنتهي قدرة البشر ويبدأ أثر القدرة الإلهية.

وفي أول النهار أقسموا بعزة فرعون، وبعد لحظات آمنوا برب العالمين. ما بين العبارتين عمر كامل، وإن لم يستغرق إلا دقائق.

هكذا يفعل الإيمان حين يدخل القلب صادقاً: لا يحتاج دائماً إلى رحلة زمنية طويلة، فقد تنضج النفس في لحظة مواجهة حاسمة. ربما عاش الإنسان سنوات في الزيف، ثم رأى من الحق ما أعاد ترتيب كيانه كله، فتحولت الدقيقة إلى ميلاد.

ولم يكتفوا بقولهم: (رَبِّ الْعَالَمِينَ)، بل بينوا: (رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)؛ حتى لا يسرق فرعون العبارة ويعيد تفسيرها لمصلحته. لقد حددوا الرب الذي آمنوا به: ليس من ادعى الربوبية وجلس أمامهم، بل رب الرسولين اللذين جاءا بالآية.

وهنا وقعت الهزيمة الحقيقية لفرعون. لم تكن هزيمته أن عصا موسى ابتلعت الحبال، بل أن رجاله الذين جُمعوا لنصرته تحولوا أمام الجماهير إلى شهداء على كذبه.

كان يريد أن يستخدم معرفتهم لحماية عرشه، فاستخدموا معرفتهم في إعلان بطلانه.

حين يصير الإيمانُ أكبرَ من الألم

صرخ فرعون:

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ).

يا لكلمة الطاغية: (قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ)!

إنه لا يرى الإيمان شأنًا يخص القلب وربه، بل قرارًا يحتاج إلى ترخيص من السلطة. لم يغضب لأنهم أخطؤوا في نظره، بل لأنهم اكتشفوا أنهم يملكون قلوبهم دون إذنه.

الاستبداد لا يرضيه أن يطيع الناس أو امره في الظاهر؛ يريد أن يملك داخلهم أيضًا، أن يحدد لهم ما يصدقون وما يكذبون، وما يحبون وما يكرهون، وأن تصبح ضمائرهم إحدى مؤسسات حكمه.

وحين عجز فرعون عن إنكار ما رآه الجميع، اخترع رواية بديلة: (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ). لقد كانت - في زعمه - مؤامرة مرتبة بين موسى والسحرة.

والكذبة هنا فاضحة؛ فالسحرة جاؤوا بطلب فرعون، وساموه على الأجر، وحلفوا بعزته أمام الناس. لكن الطاغية لا يشترط في روايته أن تكون معقولة؛ يكفي أن يمتلك منابر تكررهما، وخوفًا يمنع الناس من الاعتراض عليهما.

ثم جاء التهديد بأقصى ما يملك: تقطيع وصلب شامل. أراد أن يعيد الرعب إلى القلوب التي حررها اليقين.

لكن السحرة قالوا:

(قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ).

(لَا ضَيْرَ).

كلمتان صغيرتان وقفتا أمام آلة التعذيب كلها.

لا يعني ذلك أنهم فقدوا الإحساس بالألم، ولا أن تقطيع الأيدي والأرجل صار هيناً في طبيعة الجسد؛ بل يعني أن الألم حين وُضع إلى جوار لقاء الله تغير حجمه. لقد اتسع أفقهم فجأة، فلم تعد الدنيا هي المشهد كله، ولم يعد فرعون يملك النهاية.

قبل الإيمان كانوا يسألون: هل لنا أجر؟ وبعد الإيمان صاروا يقولون: (إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ). تبدل مركز الحساب: لم يعد المهم ما يمنحه فرعون في أول النهار، بل ما يمنحه الله بعد انقضاء العمر.

وهذا ما يصنعه اليقين بالآخرة في النفس: لا يلغي الخوف البشري، لكنه يسحب من الطغاة احتكار المصير. يستطيع فرعون أن يحدد طريقة موتهم، لكنه لا يستطيع أن يحدد ما بعد الموت. يملك الصليب، ولا يملك المتقلب.

وحين يعلم الإنسان أن وراء آخر لحظة في الدنيا باباً يفتح على الله، تفقد التهديدات قدرتها المطلقة. يصبح الموت عبوراً لا فناً، والألم زمناً محدوداً لا قدراً أبدياً، وتغدو اليد المقطوعة شهادة على أن القلب لم يُقطع عن ربه.

والأجمل أنهم لم يدخلوا الإيمان مغترين بموقفهم، بل دخلوا عليه منكسرين:

(إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا).

رأوا الآية، وسجدوا، وثبتوا أمام التهديد، ومع ذلك لم يقولوا: قد استحققتنا الجنة بطولتنا. قالوا: نطمع أن يغفر لنا ربنا.

إن الإيمان الصادق يجمع بين صلابة الموقف ورقة القلب؛ يقف المؤمن أمام الطاغية كالطود، ثم يقف أمام الله كعبد مثقل بخطاياہ يرجو المغفرة. لا يحمله ثباته أمام الناس على العجب، ولا يحمله خوفه من ذنبه على الضعف في الحق.

وكان رجالوهم متصلًا بسبقهم:

(أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ).

لم ينتظروا حتى يتأكدوا أن الناس سيتبعونهم، ولم يشترطوا أن يصبح الإيمان اتجاهًا مأمونًا. كانوا أول المؤمنين في ذلك المقام، والأول يدفع دائمًا كلفة الطريق قبل أن تمهده الأقدام.

إنهم الذين خرجوا صباحًا يطلبون القرب من فرعون، وانتهى بهم اليوم يرجون القرب من الله. وما بين القرين انكشفت المسافة بين العبوديتين: قرب السلطان يمنحه إذا رضي وينزعه إذا غضب، أما قرب الله فقد بدأ في اللحظة التي غضب فيها فرعون.

الخروج ليلاً: حين تكون النجاة حركةً قبل أن تكون معجزة

بعد أن انكشف الحق، ظل فرعون أسير طغيانه. فالآية قد تقهر الحجة، لكنها لا تقتلع الكبر من قلب اختار عبادته. وجاء الأمر إلى موسى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنَّ أَكْبَرَ عِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ).

قال: (بِعِبَادِي).

بعد أعوام الاستعباد الفرعوني جاء الوحي يرد إلى بني إسرائيل نسبتهم الحقيقية. ليسوا عبيد فرعون، ولا مجرد طبقة مسحوقة في مملكته؛ إنهم عباد الله. وقبل أن يحررهم البحر من مطاردتهم، حررهم النداء من تعريف الجلال لهم.

إن أول الحرية أن تعرف لمن تنتمي.

فمن عرف أنه عبد الله استحال أن يرى عبوديته للطغاة قدراً طبيعياً. وقد يُقهر جسده زمناً، لكن داخله يحتفظ بمسافة لا يبلغها السوط. أما من فقد نسبته إلى الله، فقد يحمل جسداً طليقاً وقلباً مستعبداً لنظرات الناس أو رغبات السوق أو رهبة السلطان.

أمرُوا بالخروج ليلاً، مع أن الله قادر أن ينقلهم من غير سير. فالنجاة الإلهية لا تعني تعطيل الفعل البشري؛ بل تبدأ غالباً بخطوة يخطوها المؤمن في الظلام اعتماداً على الوعد.

كان عليهم أن يتركوا البيوت التي ألفوها، ويحملوا خوفهم معهم، ويمضوا في طريق لا يعرفون تفاصيله. فالتوكل ليس انتظار المعجزة في موضعك، بل التحرك بأمر الله قبل أن ترى كيف ستُفتح النهاية.

وفي الجهة الأخرى بدأ فرعون الحشد:

(فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿١٠١﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿١٠٢﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ).

ما أعجب تناقض الطغيان!

يقول عنهم: (شِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ)، ثم يستنفر المدن لملاحقتهم. إن كانوا قليلين لا خطر منهم، فلماذا كل هذا الحشد؟

إن المستبد يحتقر خصومه أمام الجماهير، لكنه يخافهم في داخله. يسميهم شِرْذِمَةً ليطمئن أتباعه، ثم يجمع لهم الجيوش لأنه يعلم أن الضعيف حين يتحرر من الخوف يصبح خطراً على نظام بُني كله من الخوف.

وقال: (وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ)؛ وكأن جريمة المستضعف أنه أغضب مستعبده برغبته في الحرية. فالطاغية لا يرى التمرد على ظلمه استرداداً للحق، بل إساءة شخصية إلى هيئته.

ثم قال: (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ). إنها لغة الأنظمة التي تخفي ذعرها خلف استعراض الجاهزية. لكن الحذر إذا جاء بعد حلول قدر الله لا يرد شيئاً. يستطيع فرعون أن يجمع الجنود، لكنه لا يستطيع أن يجمع الزمن الهارب من دولته.

(فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٠٣﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٠٤﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ).

خرج فرعون يطارد قوماً ظنهم شرذمة، فإذا بالمطاردة تستخرجه من جناته وكنوزه ومقامه. لقد كان يظن أنه يخرج ليحفظ ملكه، بينما كان يساق إلى الموضع الذي سيفارقه فيه إلى الأبد.

قد يظن الطاغية أن آخر قراراته ذروة سيطرته، وهو في الحقيقة الخطوة التي يخرج بها من كل ما يملك. وحين يأتي أمر الله، تتحول أدوات النجاة في يد الباطل إلى أسباب للهلاك؛ فيخرجه حرصه على العرش من العرش، ويقوده جيشه الذي جمعه للحماية إلى الماء الذي سيغمره.

المحلة الثانية عشرة

البحر أمامهم والعدو وراءهم

(فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿١٠٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ).

طلع الصباح، وانكشف المشهد: البحر أمام بني إسرائيل، وفرعون بجنده خلفهم.

لم تعد المسألة احتمالاً خفياً؛ صار الجمعان يرى بعضهما بعضاً. هنا تبلغ الحنة أقصى ضغطها النفسي: طريق الرجوع مغلق بالعدو، وطريق التقدم مغلق بالماء. لا مجال في الحساب الظاهر إلا للأسر أو الغرق.

فقال أصحاب موسى: (إِنَّا لَمُدْرِكُونَ).

لم يقولوا: نخشى أن يدركونا، بل أكدوا وقوعه. لقد تحولت القرائن في نفوسهم إلى نهاية محسومة. وهكذا يفعل الخوف: لا يصف ما يرى فقط، بل يدعي معرفة ما سيحدث.

كانوا صادقين في وصف الأسباب، لكنهم أخطؤوا حين ظنوا أن الأسباب هي المشهد كله. نعم، البحر أمامهم، والجند وراءهم؛ لكن فوق البحر والجند ربُّ لم يدخل في حسابهم.

وجاء جواب موسى:

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ).

مرة أخرى تشرق (كَلَّا) في قلب الخوف.

قالوا: (إِنَّا لَمُدْرِكُونَ)، وقال: (كَلَّا). هم قرؤوا المشهد بعين المكان، وهو قرأه بنور الوعد. هم رأوا طريقين مغلقين، وهو آمن أن رب الطرق قادر أن يخلق طريقاً ثالثاً لا يخطر على عقل.

ولم يكن موسى يعرف بعدُ على وجه التفصيل كيف ستكون النجاة. لم يقل: سينفلق البحر؛ بل قال: (سَيَهْدِينِ). كان يملك يقين المعية قبل أن يعرف شكل المخرج.

وهذه مرتبة سامية من التوكل: أن تطمئن إلى من يدير قبل أن تعرف ماذا سيدبر، وأن تثق بأن الطريق موجود في علم الله وإن لم يظهر بعد في الأرض.

قال: (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي)، ولم يقل: معي عصاي، ولا معي خبرتي، ولا معي قومي. فحين انهارت الأسباب الظاهرة، ظهر السبب الذي كان يحملها جميعاً.

ومع ذلك جاءت المعجزة عبر فعل:

(فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ).

ماذا تصنع ضربة عصا ببحر؟ لا شيء في قانونها الذاتي. لكن الله أراد من موسى أن يفعل ما يستطيع، ليتولى الله ما لا يستطيع.

ضرب موسى، وفاق الله.

وهذا هو التوازن الذي تربي عليه السورة قلب المؤمن: لا تترك الضربة بحجة انتظار الفلق، ولا تنسب الفلق إلى الضربة. عليك أن تحمل عصاك، وأن تمتثل، وأن تتحرك، لكنك تعلم أن البحر لا يفتح بقوة يدك، بل بأمر ربك.

وانتصبت المياه على الجانبين (كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ). لقد صار موضع الموت طريقاً للحياة، وصار المانع جداراً يحجي المارين. فالله لا يزيل العقبة دائماً، بل قد يشق الطريق في قلبها. لا يجفف كل بحر قبل وصولك، ولكنه يجعلك تمشي بين أمواجه حين يحين الأمر.

(وَأَرْزَلْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ۖ وَانْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ۖ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ).

دخل الفريقان الطريق نفسه، لكن الطريق لم يكن لهما واحداً. ما كان للمؤمنين نجاةً صار للطغاة هلاكاً.

وهذه من دقة السنن: قد يتشابه المكان والفعل، وتختلف العاقبة باختلاف الموقع من أمر الله. عبر موسى البحر طاعةً، ودخله فرعون بغياً؛ فحمل الماء هذا وأنهى ذاك.

وسقط فرعون في العنصر الذي جعله الله أصل الحياة. فليس في الأشياء نجاة أو هلاك بذاتها؛ إنما تجري بأمر الله. النار برد على إبراهيم، والبحر يابس لموسى، ثم هو غرق لفرعون.

وبعد أن هداً الموج، جاءت اللازمة:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةًٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَھُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

عزيزٌ حين أخرج موسى من القصر، ثم أعاده رسولاً، ثم أخرجہ من مصر، ثم أغرق من هدده بالسجن والقتل.

ورحيمٌ حين سمع خوفه أول مرة، وأرسل معه هارون، وحفظه في المواجهة، ثم شق له البحر في اللحظة التي قال فيها أصحابه: انتهى كل شيء.

وما انتهى كل شيء.

لقد انتهى فقط ما تستطيع العين أن تراه؛ وعند تلك الحافة بدأ فعل العزيز الرحيم.

المحطة الثالثة عشرة

إبراهيمُ يدخلُ على الأصنام من باب السؤال

بعد أن أغلق البحر على فرعون، تنتقل السورة من طغيان العرش إلى طغيان المعبد؛ من رجلٍ عبد نفسه، إلى قوم عبدوا ما صنعت أيديهم.

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿١١٢﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ).

السؤال في ظاهره بسيط: (مَا تَعْبُدُونَ)؟ لكن البساطة هنا تخفي زلزالاً فكرياً؛ لأن إبراهيم عليه السلام لا يسألهم عن أسماء معبوداتهم، فهو يراها أمامه، وإنما يريد أن ينقل العبادة من منطقة العادة إلى منطقة الوعي.

فأشد المعتقدات رسوخاً في النفس تلك التي لم تُسأل قط: لماذا؟

حين يرث الإنسان فكرةً عن يئته، ويتنفسها منذ طفولته، قد لا يشعر أنه اختارها أصلاً. تصير جزءاً من أثاث العقل، لا يراها لأنه يرى بها. نجاة إبراهيم ليجعل المألوف مرئياً، وليدفعهم إلى النظر في الشيء الذي طالما نظروا من خلاله.

إن السؤال الصادق قد يكون أول مطرقة على الصنم.

أجابوا:

(قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ).

لم يقولوا: نعبد آلهة؛ بل كشف التعبير حقيقة معبوداتهم: (أَصْنَامًا)، أشياء جامدة، منحوتة، معلومة المادة والصانع. ثم أظهروا شدة تعلقهم بها: (فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ). ليست زيارات عابرة، بل إقامة نفسية طويلة؛ يسكنون أمامها الوقت والخضوع والرجاء.

والعكوف ليس جلوس الجسد فحسب، بل إقامة القلب عند شيء لا يكاد يبرحه. ولهذا لم تحتف الأصنام باختفاء الحجارة؛ فقد يعكف الإنسان اليوم على صورته في أعين الناس، أو على رصيده، أو شهرته، أو حربه، أو ذاته. وما يستولي على خوفك ورجائك، ويعيد ترتيب حياتك حوله، ويمنعك من مخالفته ولو خالف الحق، فقد أخذ من قلبك نصيباً من العكوف.

واصل إبراهيم أسئلته:

(قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ).

إنه يمتحن العبادة بأبسط مقتضياتها: أن يكون المعبود سامعاً للدعاء، مالئاً للنفع والضرر. فإذا كان لا يسمع من يناجيه، ولا ينفع من يخدمه، ولا يضر من يهجره، فعلى أي أساس تُبنى هذه العبودية؟

لم يدخل إبراهيم معهم في تجريد فلسفي معقد؛ أعادهم إلى خبرتهم المباشرة. أنتم تدعون، فهل تسمع الأصنام؟ تقتربون، فهل تملك لكم شيئاً؟

وهنا ظهرت عورة الموروث:

(قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ).

سألهم عن الأصنام، فأجابوا عن الآباء.

سألهم عن البرهان، فأجابوا عن التاريخ.

إنهم لم يقولوا إنها تسمع أو تنفع؛ بل انتقلوا من عجز المعبود إلى سلطة الموروث. وكأن قدم الفعل يغنيه عن صدقه، وكأن كثرة من مارسوه تمنحه الحق في البقاء.

إن احترام الآباء خُلِقَ، أما تحويلهم إلى حجاب يحول بين الإنسان والحق فعبودية أخرى. فليس الوفاء للماضي أن نورث أخطاءه بلا سؤال؛ بل أن نحفظ فضله، ونزن اجتهاده بميزان الوحي، ونعلم أن الإنسان يكرم أباه ولا يعبد.

وقد يكون الموروث قوياً لا لأنه مقنع، بل لأنه متداخل مع هوية الإنسان. فإذا ناقشت فكرته ظن أنك تنتزع منه أسرته وتاريخه وذاك كرهه. لذلك يحتاج التحرر الفكري إلى شجاعة عاطفية أيضاً؛ شجاعة أن تحب أهلك دون أن تجعلهم مصدر الحقيقة المطلقة.

المحطة الرابعة عشرة

البراءة التي تعيد تسمية العالم

بعد أن أسقط إبراهيم حجة الموروث، أعلن موقفه بوضوح:

(قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٦﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿١٧﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ).

قال: (عَدُوِّي)، ولم يقل: أعداء؛ فجاء اللفظ كأن الباطل، على تعدد صوره، حقيقة واحدة في عدائه للإنسان.

الأصنام لا تتحرك، فكيف تكون عدوًّا؟ إنها عدو بما تصنعه عبادتها في الروح: تصرف القلب عن خالقه، وتبدد كرامته أمام ما هو أدنى منه، وتملأ الحياة بالخوف من أشياء لا تملك شيئاً.

كل معبود سوى الله عدو لمن عبده، ولو ظهر أول الأمر صديقاً. الشهوة تعد باللذة ثم تستعبد، والمال يعد بالأمان ثم يورث القلق، والشهرة تعد بالامتلاء ثم تجعل صاحبها جائعاً إلى عيون الناس، والسلطة تعد بالقوة ثم تحبس صاحبها في خوف دائم من زوالها.

إن الصنم لا يشترط أن يكون حجراً؛ يكفي أن تمنح شيئاً حقاً لا يملكه إلا الله.

ثم استثنى إبراهيم:

(إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ).

هنا خرج من عالم العداوات إلى فضاء الولاية. وبعد أن وصف زيف المعبودات، لم يقدم تعريفاً ذهنياً بارداً لله، بل سرد علاقته الحية بربه:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿١﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٢﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٣﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٤﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ).

ليس الإله الحق فكرةً معلقة فوق الحياة؛ إنه الذي يحيط بالإنسان من أول وجوده إلى آخر مصيره: خلقاً، وهدايةً، ورزقاً، وشفاءً، وموتاً، وبعثاً، ومغفرة.

بدأ بالخلق: (الَّذِي خَلَقَنِي). فأنا لست ثمرة نفسي، ولم أستأذن الوجود قبل أن آتية، ولم أصنع العين التي أرى بها ولا القلب الذي ينبض في صدري. وجودي نفسه منحة تسبق كل منحة.

ثم قال: (فَهُوَ يَهْدِينِ). والفاء تصل الخلق بالهداية؛ فالذي خلق الإنسان لم يتركه بعد الخلق تائهاً. وكما أعطاه جسداً يسير به في الأرض، أنزل له وحياً يسير به إلى الغاية. فالخلق من غير هداية وجود بلا بوصلة، والهداية امتداد لرحمة الخلق.

ثم انتقل إلى أكثر أفعال الحياة تكراراً:

(وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ).

يضع الإنسان الطعام بيده في فمه، وقد يظن لذلك أنه الذي أطعم نفسه. لكن من خلق الطعام؟ ومن أودع الجسد حاجته إليه وقدرته على الانتفاع به؟ ومن ساق المطر، وأنبت الزرع، وهباً الأسباب، وحفظ عمليةً معقدة تجري في الجسد دون أن يديرها وعي الإنسان؟

إن اليد تتناول، ولكن الله يطعم.

وفي قوله: (هُوَ يُطْعِمُنِي) ضمير فصل يوقظ القلب من الاعتراض بالوسائط. قد يأتي رزقك عبر صاحب عمل أو تجارة أو إنسان، لكن هؤلاء مجاري الرزق لا منابعه. ومن عرف المنبع شكر الواسطة ولم يعبدها، وانتفع بالسبب ولم يعلق قلبه به.

ثم قال:

(وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي).

نسب المرض إلى نفسه أدباً، مع أن كل شيء بقضاء الله، ونسب الشفاء صريحاً إلى ربه. وفي هذا من رقة خطاب الأنبياء ما يجعل المعرفة ذوقاً وعبودية.

والدواء سبب، والطبيب سبب، والجسد نفسه سبب، لكن الشفاء من الله. فقد يتساوى مريضان في الدواء وتختلف العاقبة، لأن المادة لا تعمل مستقلة عن تقدير خالقها.

وليس المرض جسدياً وحده. ثمة مرض في التصور، ومرض في الإرادة، وجرح في الذاكرة، وانكسار لا تكشفه الأشعة. والشفاء كله بيده؛ يداوي الجسد بما خلق من أسباب، ويداوي القلب بكلمة، أو سجدة، أو فهم مفاجئ، أو لطف يتسلل إلى الروح من حيث لا تدري.

ثم اتسعت الرؤية إلى النهاية:

(وَالَّذِي يُمَيِّنِي ثُمَّ يُحْيِينِي).

الموت ليس سقوطاً خارج التدبير، الذي خلق هو الذي يميت، والذي يميت هو الذي يحيي. ليست النهاية فوضى، ولا القبر فُماً يبتلع الإنسان إلى العدم؛ إنه محطة بين قبضتين من الرحمة والقدرة.

وعندما وصل إبراهيم إلى المغفرة، لم يتكلم بلسان الاستحقاق:

(وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ).

خليل الرحمن يقول: (أَطْمَعُ).

فما بال أقوام يحملون أعمالاً قليلة وقلوباً مملوءة بالعجب، كأن لهم عند الله صكوكاً مضمونة؟ إن العارف كلما اقترب من جلال الله ازداد شعوره بالتقصير، لأن النور الذي يكشف له عظمة النعمة يكشف له في الوقت نفسه ضآلة الشكر.

رجاء إبراهيم ليس شكاً في رحمة الله، بل أدب العبودية. المؤمن يثق بربه، لكنه لا يغتر بنفسه؛ يرجو المغفرة ولا يطالب بها، ويعمل للطاعة ولا يرى عمله ثمناً للجنة.

دعاء إبراهيم: ماذا يطلب من عرف الله؟

بعد أن عرّف إبراهيم قومه رب العالمين، انفتح قلبه بالدعاء:

(رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ).

قال: (هَبْ لِي)؛ لأنه يعلم أن أعظم ما يبلغه الإنسان ليس نتيجة ذكائه وحده، بل هبة من الله.

وطلب الحكم: بصيرة تضع الأشياء في مواضعها، وتميز الحق من الشبهة، وتصل المعرفة بالعمل. فليس كل من جمع المعلومات حكيمًا؛ قد يتضخم العقل بالمحفوظات، ويظل عاجزًا عن رؤية الطريق. الحكمة نور يمنح المعرفة اتجاهها، ويمنح القرار وزنه، ويمنع صاحبه من أن يستخدم الحق في موضع الباطل أو الباطل في ثوب الحق. ثم قال: (وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ).

لم يقل: واجعل الصالحين ملحقين بي، ولم ير نفسه مكتفياً بمقامه، بل طلب أن يلحق بركبهم. هذه نفس لا تعرف الاستعلاء الروحي. إبراهيم الذي وقف وحده أمام قومه لا يرى نفسه فوق جماعة الصالحين، بل يرجو أن يكون واحدًا منهم.

فالولاية لله لا تمنح صاحبها شعورًا بالتفوق على عباده؛ وكلما ازداد الإنسان صلاحًا، ازداد خوفه من أن يخرج عن قافلة الصالحين.

ثم قال:

(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ).

لم يطلب شهرةً مجردة، ولا أن يتردد اسمه في المجالس كيفما اتفق؛ بل طلب ذكرًا صادقًا يحمل الخير في الأجيال اللاحقة. وثمة فرق بين أن يبقى اسمك، وأن يبقى صدقك. قد تخلد أسماء الطغاة في التاريخ، ولكنها تخلد لعنات؛ أما لسان الصدق فهو أن يجعل الله لسيرتك أثرًا يدل عليه، وأن تصبح حياتك كلمة هادية بعد موتك.

إن المؤمن لا يطلب الخلود في ذاكرة الناس لإشباع ذاته، بل يرجو أن يمتد نفعه بعد انقطاع عمله. يريد أن يكون أثره نافذة إلى الله، لا تمثالاً يقف عنده الناس.

ثم ارتفع الدعاء إلى الغاية:

(وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ).

بعد الحكم والصحبة الصالحة والذكر الحسن، تبقى الجنة هي المطلب الذي تنتهي إليه رحلة الإنسان. فكل نجاح لا يعبر بصاحبه إلى رضوان الله نجاح ناقص، وكل شهرة تلعب في الدنيا ثم تخبو عند باب الآخرة فقيرة وإن ملأت الأرض.

ثم تذكر إبراهيم أباه:

(وَاعْفِرْ لِي إِنِّي إِنَّهُ كَأَن مِّنَ الضَّالِّينَ).

لم تمنعه المفاصلة العقدية من ألم النبوة. لقد رفض ما يعبد أبوه، لكنه لم يفقد الرقة نحوه. فالحق لا يحول القلب إلى حجر، والبراءة من الباطل لا تساوي القسوة على الخلق.

كان يرى ضلال أبيه، ولذلك لم يجامل، وكان يحبه، ولذلك دعا له بحسب ما كان قد وعده قبل أن يتبين له أنه عدو لله. وفي هذا التوازن دقة الإيمان: وضوح في المبدأ، ورحمة في القلب؛ لا يشتري رضا القريب بالتنازل عن الحق، ولا يجعل تمسكه بالحق ذريعة لإهدار حقوق القربى.

ثم قال:

(وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿١٠١﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ).

وصل إبراهيم إلى موضع الخوف الأعظم: خزي يوم البعث.

لم يقل: لا تفقرني، ولا تمرضني، ولا تجعل قومي يؤذونني؛ بل خشي الخزي الذي لا يستره مال ولا ولد ولا مكانة. فوازين الدنيا كلها تسقط هناك: المال الذي يفتح الأبواب لا يفتح باب النجاة، والأبناء الذين يحيطون بالإنسان لا يحملون عنه وزره، والنسب الذي يتباهى به لا يبدل حقيقة القلب.

ولا يعني هذا أن المال والبنين مذمومان في أنفسهما، وإنما المأساة أن يظنهما الإنسان ضماناً لما لا يملكانه. هما زينة وابتلاء ووسيلة، لا جسراً يعبر به المجرم فوق عدل الله.

والاستثناء واحد:

(إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ).

لم يقل: بلسان بليغ، أو صورة لامعة، أو تاريخ يتحدث عنه الناس، بل بقلب سليم.

القلب السليم هو الذي سلم من الشرك، وسلم لله، وسلم من جعل الهوى حاكماً على الوحي. قلب لا يحمل إلهاً خفياً ينازع الله مقامه، ولا يزين باطله ثم يسميه حقاً، ولا يتغذى على الحقد حتى يلقي ربه مثقلاً بسمومه.

وليس القلب السليم قلباً لم يجرح قط؛ فقد تجرحه الحياة ويبقى سليماً. وليس قلباً لم يحزن، فالأنبياء حزنوا. إنما هو قلب إذا انكسر لم يتحول كسره إلى شر، وإذا ظلم لم يجعل الظلم عقيدة، وإذا أذنب لم يدافع عن ذنبه، بل عاد إلى الله.

قد يأتي الإنسان يوم القيامة بقلب كثير الندوب، لكنه سليم الاتجاه؛ عرف ربه، وصدق معه، وتاب كلما عثر. فالسلامة ليست خلو الحياة من الألم، بل خلو القلب من الإصرار الذي يفصله عن الله.

المحطة السادسة عشرة

حين تقترب الجنة ويكشف الجحيم

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٠٠﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ).

الجنة تُزلف، أي تُقرب؛ كأنها تقترب من أهلها ترحيباً بهم، بعد أن قضوا أعمارهم يقتربون منها بالطاعة. أما الجحيم فتُبرّز، وتُكشف بعدما كانت محجوبة عن الأبصار.

في الدنيا تستطيع الغواية أن تغطي عاقبتها، تأتي الشهوة مزينة، ويأتي الباطل في ثياب المصلحة، ويأتي الانحراف مصحوباً بالأسماء الجميلة. أما في الآخرة فتُبرّز الحقيقة بلا مساحيق. يرى الإنسان النهاية التي كانت تختبئ خلف لذة عابرة.

(وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٠٠﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ).

عاد السؤال الذي بدأ به إبراهيم: هل تنفعكم هذه المعبودات؟ لكنه في الدنيا كان سؤال برهان، وهنا صار سؤال فضيحة.

كان يمكنهم يومها أن يراجعوا، أما الآن فلا يملكون إلا مشاهدة الجواب. فالحقائق التي يرفض الإنسان التفكير فيها في زمن الاختيار، سيضطر إلى رؤيتها في زمن الجزاء.

(فَكَبِّبُوا فِيهَا لَهُمْ وَالْعَاوُونَ ﴿١٠١﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ).

في (كَبِّبُوا) صوت السقوط المتكرر، كأن بعضهم يلتقي فوق بعض، وتندرج طبقات الغواية إلى مصيرها. كانت بينهم في الدنيا مراتب وزعامات ومسافات، فإذا بالنار تسويهم في كتلة من الهزيمة.

هناك ينفجر الاعتراف:

(قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿١٠٢﴾ تَاللَّهِ إِنَّ كُفَّا لَنِي ضَالَالٍ مُبِينٍ ﴿١٠٣﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَمَا أَضَلَّتْ إِلَّا الْمُجْرِمُونَ).

ها هم يستخدمون العبارة نفسها التي حملها موسى وأعلنها إبراهيم: (رَبِّ الْعَالَمِينَ). لكنها خرجت منهم بعد فوات زمنها.

كان ضلالهم أنهم سواوا المخلوق بالخالق، والفقير بالغني، والعاجز بالقادر، والعبد برب العالمين. وليس من الضروري أن يقول الإنسان بلسانه إن أحداً يساوي الله؛ قد يصنع هذه التسوية بسلوكه حين يقدم رضا المخلوق على أمر الخالق، أو يخشى الناس تكشية الله، أو يمنح هواه حق التحليل والتحرير.

ثم يبحثون عن سبب يعلقون عليه هلاكهم: (وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ). لقد اتبعوا المضلين، لكن الاتباع لم يسقط مسؤوليتهم؛ فالإنسان لا يفقد تبعه اختياره لمجرد أن غيره زين له الطريق.

(فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ).

في أشد لحظات المصير يتذكرون حاجتين إنسانيتين: شفيعاً ينقذ، وصديقاً يحنو. لكن العلاقات التي بُنيت على الغواية تهاوى عند الشدة. كان حولهم في الدنيا رفاق كثيرون، غير أن الصحبة التي لا تقوم على الحق تنتهي خصومةً أو عجزاً.

ما أقسى أن يكتشف الإنسان أن كل الزحام الذي أحاط به لم يمنحه صديقاً حميماً عند الحقيقة!

ثم تنفجر الأمنية:

(فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

لا يتمنون مزيداً من المال، ولا عودةً إلى اللذات، ولا فرصةً لاستكمال ما بنوه؛ يتمنون الإيمان. فقد انكشفت القيمة الحقيقية للأشياء، وسقطت العملات التي تعاملوا بها، وبقيت عملة واحدة كان يمكن أن تنجيهم.

لكن الدنيا لا تستعاد بعد أن تنتهي. والقرآن ينقل إلينا أمنيتهم الآن كي لا تصبح أمنيتهنا غداً. لقد منحنا الله في هذه اللحظة الكرة التي طلبوها ولم ينالوها: ما دمنّا أحياء نستطيع أن نعود، وأن نصحح، وأن نأتيه بقلب سليم.

وتعود اللازمة:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

عزَّزَ عَلَى الْأَصْنَامِ وَمَنْ عِبَدَهَا، رَحِيمٌ بِإِبْرَاهِيمَ حِينَ أَخْرَجَهُ مِنْ مِيرَاثِ قَوْمِهِ إِلَى نَوْرِ التَّوْحِيدِ.

عزَّزَ يَوْمَ تَبَرَّزَ الْجَحِيمِ، رَحِيمٌ إِذْ أَخْبَرْنَا بِهَا قَبْلَ أَنْ نَرَاهَا.

فَالْإِنْذَارُ نَفْسَهُ رَحْمَةً؛ لِأَنَّهُ يَكْشِفُ الْحَفْرَةَ قَبْلَ أَنْ تَسْقُطَ فِيهَا الْقَدَمُ، وَيُرْسِلُ إِلَيْكَ خَبَرَ النَّدَمِ قَبْلَ أَنْ يَصْبِحَ نَدَمُكَ.

المحطة السابعة عشرة

نُوحٌ: حِينَ يَطُولُ الطَّرِيقُ وَلَا يَهْرَمُ الْيَقِينُ

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۖ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ).

قالت السورة: (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ)، مع أن نوحاً كان أول رسول إليهم، ولم يواجهوا قبله سلسلة من الرسل حتى يكذبوهم جميعاً. لكن تكذيب رسول واحد تكذيب للرسالة كلها؛ لأن مصدرهم واحد، وحقيقة دعوتهم واحدة، والطريق الذي يفتحونه أمام البشر واحد.

فالإنسان لا يستطيع أن يقول: أؤمن بالوحي من حيث المبدأ، ثم أردته حين يأتيه بما يخالف هواه. إن منطق التكذيب لا يقف عند شخص الرسول، بل يرتد إلى أصل الرسالة؛ لأن مشكلة المكذب ليست في وجه حاملها، وإنما في الحق الذي يحمله.

ثم قالت: (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ).

ما أرق هذه النسبة بعد قسوة التكذيب!

لقد كذبوه، وظل القرآن يسميه أخاهم. لم تُسقط المعارضة رابطة القرب الإنساني، ولم يتحول النبي في خطابه إلى غريب يطل عليهم من برج. كان منهم، يعرف لغتهم، ويعيش آلامهم، ويريد لهم النجاة لا الغلبة عليهم.

الداعية الحق لا يقف أمام الناس نخصم يتشقى في سقوطهم، بل كأخ يرى النار تقترب من أهله. قد يرفض باطلهم بأقصى الوضوح، لكنه لا يفقد الرحمة بهم. فالبراءة من الضلال شيء، والبراءة من إنسانية الضال شيء آخر.

وكان أول ما قاله:

(أَلَا تَتَّقُونَ).

إنها كلمة تجمع الطريق كله: ألا تجعلون بينكم وبين العاقبة وقاية؟ ألا توقظون في قلوبكم حس المسؤولية أمام الله؟ ألا تنظرون وراء اللحظة الحاضرة إلى ما تلد من مصير؟

التقوى ليست خوفاً مشلولاً، وإنما يقظة تمنع الإنسان من أن يسير مغمض العينين إلى الهاوية. إنها أن تعيش وأنت ترى أبعد من شهوات الساعة، وأن تقيس خطوتك لا بما تمنحه الآن فحسب، بل بما تصنعه في قلبك وما تلقى به ربك.

ثم عرّفهم نوحٌ موقعه:

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا).

جمع بين الرسالة والأمانة؛ لأنه لا يكفي أن يحمل الإنسان كلمة حقاً، بل لا بد أن يحملها بقلب أمين. لا يبدلها ليكسب، ولا يخفي بعضها ليرضي، ولا يجعل الرسالة سلماً إلى مجد شخصي.

الأمانة هي الطمأنينة التي ينبغي أن يشعر بها الناس تجاه حامل الوحي: أنه لا يريد الاستيلاء على حياتهم، بل تحريرها؛ ولا يطلب أن ينقلهم من عبودية الصنم إلى عبوديته هو، بل إلى عبادة الله وحده.

ولهذا قال:

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ).

إنها العبارة التي ستتكرر على ألسنة الأنبياء في السورة، كأنها ميثاق شرف للرسالة: لا أبيع لكم النور، ولا أجعل حاجتكم إلى الهداية سوقاً لمصلحتي.

لقد جرد نوح دعوته من كل شبهة شخصية. لا مال يطلبه، ولا رتبة، ولا سلطان. أجره عند رب العالمين؛ ولذلك لا يستطيع الناس ابتزازه بالحرمان، ولا شراء صمته بالعتاء.

ومن جعل أجره على الناس أصبح أسيراً لتقلب رضاهم؛ يقول ما يحبون، ويسكت عما يكرهون، ويراقب التصفيق ليعرف أين يقف. أما من كان أجره على الله، فقد تحرر من سوق الجماهير. ينصحهم لأنه يحبهم، ويثبت إذا أعرضوا؛ لأنه لم يبدأ من أجل إعجابهم حتى يتوقف حين يذمونه.

إن إخلاص المصدر هو سر طول النفس. وقد لبث نوح في قومه قروناً إلا خمسين عاماً، لا لأن الاستجابة كانت كثيرة، بل لأن علاقته بالرسالة لم تكن متوقفة على الاستجابة. كان يزرع لأن الله أمره بالزرع، لا لأن الناس وعدوه بحصاد سريع.

ثم كرر:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا).

الطاعة هنا ليست تعظيماً لشخصه، بل اتباعاً لما جاء به من عند الله. والرسول لا يقول: أطيعوني لأكون سيدكم، بل لأن الطاعة للرسالة طريقكم إلى التحرر من سادات الزيف.

المحطة الثامنة عشرة

أراذلُ في أعين الناس... كرامٌ عند الله

لم يجد القوم في رسالة نوح ما يطعنون فيه، فنظروا إلى أتباعه:

(قَالُوا اتُّؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدُلُونَ).

لم يسألوا: هل ما تقول حق؟ بل قالوا: من الذين صدقوك؟

إنها حيلة الطبقة المستعيلة حين تعجز عن نقض الفكرة: تحاكمها إلى المكانة الاجتماعية لأتباعها. فإذا آمن بها الفقراء والضعفاء، جعلت فقرهم دليلاً على بطلانها؛ كأن الحق لا يكون حقاً حتى تصادق عليه الطبقات النافذة.

وسمّوهم الأراذلين، لا لأنهم كانوا فاسدي الأخلاق، بل لأنهم كانوا دونهم في المال والحرفة والمنزلة. لقد جعلوا القيمة الإنسانية مرآةً للثروة؛ فمن قل ماله قل قدره، ومن خلا من الجاه خلا - في ظنهم - من الكرامة.

وهذا المرض لم يغادر المجتمعات. ما يزال الإنسان يُقاس بما يملك، لا بما هو عليه؛ بثيابه قبل قلبه، وبمنصبه قبل صدقه، وبعدد من يعرفونه قبل معرفة الله به. وقد

يدخل رجل مملوء بالنفاق مجلساً فتفتح له الصدور لأن له جاهاً، ويمر قلب نقيّ فلا يكاد يراه أحد لأن يده خالية.

لكن رسالات السماء تأتي لتفك هذه المعادلة. إنها تعيد تعريف الإنسان من داخله، وتقول إن قيمة المرء لا تصعد مع حسابه المالي ولا تهبط مع مهنته؛ إن أكرم الناس عند الله أتقاهم.

أجابهم نوح:

(قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ).

كانهم لحوا إلى أن هؤلاء الضعفاء آمنوا بغير روية، أو أن ماضيهم لا يؤهلهم للقرب. فقال نوح: لست مكلفاً بالتنقيب في دخائلهم، ولا بوزن أسرارهم وفق ميزانكم. حسابهم على ربي.

إنه يضع حداً للطغيان الديني الذي يمنح الإنسان نفسه سلطةً على سرائر العباد. نحن نحكم بالظاهر، أما القلوب فملك لله. وقد يكون الذي تحتقره أقرب إلى الله منك، وقد يحمل ثوباً بسيطاً وقلباً لو أقسم على الله لأبره.

ثم أعلن المبدأ الذي لا مساومة فيه:

(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ).

كان بإمكان نوح - وفق حساب السياسة البشرية - أن يطرد الفقراء كي يكسب السادة، وأن يضحي بالأطراف ليقترب من المركز. لكنه فهم أن رسالةً تبدأ بطرد المؤمنين كي تُرضي المتكبرين قد فقدت روحها قبل أن تنتصر.

ما قيمة دعوة إلى الله إذا أهين عند بابها من أقبل على الله؟

لم يقل نوح: سأخفيهم مؤقتاً، أو أجعل لهم مجلساً أقل منزلة، أو أؤخر وجودهم حتى يرضى الأشراف. قال بوضوح: (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ).

فبيت الإيمان لا يضيق بفقير حتى يتسع لغني، ولا يخفض صوته الضعيف حتى يسمع المتكبر. إن الرسالة التي جاءت لتقيم ميزان الله لا تستطيع أن تبدأ بالخضوع لميزان الطبقات.

كان القوم يريدون ديناً يؤكد امتيازاتهم، لا ديناً يساوي بينهم وبين من يحتقرون. ولذلك لم تكن مشكلتهم مع العقيدة وحدها، بل مع النظام الأخلاقي الذي تنشئه العقيدة. فالتوحيد لا يغير وجهة السجود فقط، بل يغير بناء المجتمع: إذا كان الله رب الجميع، فلا يحق لإنسان أن يتأله على إنسان.

ولهذا يكون المستضعفون أحياناً أسرع الناس إلى الوحي؛ لا لأن الفقر وحده فضيلة، بل لأنهم أقل خسارة لما صنعه الاستكبار من امتيازات. أما المتصدر الذي بنى منزلته على تفاوت زائف، فيشعر أن المساواة أمام الله تهدد العرش الصغير الذي أقامه لنفسه.

المحطة التاسعة عشرة

حين ينفدُ منطقُ المكذِبين ويبقى الحجر

لما ثبت نوح على احتضان المؤمنين، لم يقدم قومه حجة جديدة؛ بل انتقلوا إلى التهديد:

(قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ).

هذه نهاية تتكرر في تاريخ الباطل: يبدأ بالاستهزاء، ثم التشويه، ثم الإقصاء الاجتماعي، فإذا لم تنطفئ الكلمة انتقل إلى العنف.

(لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ): سنواجه الكلمة بالحجر.

إنهم لم يستطيعوا رجم حجة، فأرادوا رجم جسده. وهذا اعتراف خفي بالعجز؛ فالفكرة التي يمكن إبطالها بالبرهان لا تحتاج إلى حجر.

والعنف لا يثبت قوة صاحبه كما يتوهم، بل يكشف أنه فقد القدرة على الحوار. حين يرفع الطاغية سوطه في وجه الكلمة، يكون السوط إعلاناً أن مخزن منطقته قد فرغ.

لكن وراء هذه الآية عمراً طويلاً من الدعوة. ليس التهديد رد فعل على خطاب عابر؛ إنه خاتمة أجيال من الإصرار. لقد دعاهم نوح ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، وبقي الباب مفتوحاً حتى استنفدت القلوب المعاندة كل إمكانياتها.

وهنا لم يدعُ نوح بدافع جرح شخصي، بل رفع إلى الله تقرير الرسالة:

(قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١٠١﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

قال: (رَبِّ).

بعد مئات السنين من التكذيب لم يتغير عنوانه. ما يزال الله ربه، وما يزال الباب الذي يرجع إليه. طال الطريق، لكن الصلة لم تهرم.

إن بعض الناس يثبتون ما داموا يرون الثمر، فإذا طال الانتظار تعب يقينهم. أما نوح فظل ينادي حتى صار الزمن نفسه شاهداً على إخلاصه. لم يكن صبره نحولاً، بل وفاءً ممتداً لا تقطعه النتائج العاجلة.

وقال: (إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ). في إضافة القوم إلى نفسه بقايا الألم: إنهم قومي، ومع ذلك كذبوني. فالجراح التي تأتي من القريب أشد؛ لأن الإنسان لا يتلقى منها الأذى وحده، بل يتلقى معها انهيار الرجاء الذي بناه على القرب.

ثم طلب: (فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا). والفتح هنا فصلٌ بحكم الله، وكشفٌ للحقيقة بعد أن اختلطت طويلاً في أعين الناس. فقد يبدو النبي مهزوماً والمكذبون غالبين، حتى يأتي الفتح فيضع كل فريق في موضعه.

ولم يقل: لنجني وحدي، بل قال: (وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ). ظل قلبه متعلقاً بمن حملوا معه عناء الطريق. فالقائد الرباني لا يجعل أتباعه وقوداً لنجاته، بل يحملهم في دعائه عند المنعطف الأخير.

المحطة العشرون

السفينة المشحونة: نجاة تُبنى بعيداً عن التصفيق

(فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١٠٦﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ).

جاءت النجاة في الفلك المشحون؛ سفينة امتلأت بمن كتب الله لهم العبور إلى بداية جديدة.

لكن هذه السفينة لم تظهر فجأة ساعة الطوفان. كانت ثمرة عمل طويل، بُني على اليأس تحت عيون الساعرين. كان نوح يصنع وسيلة النجاة في زمن لم تظهر فيه بعد ملاح الخطر الذي ستنتجي منه.

وهذا من أعمق صور اليقين: أن تعمل للوعد قبل أن ترى مقدماته.

أن تبني سفينةً والسماء صافية، وأن تثبت اللوح إلى اللوح بينما يضحك منك من لا يرى إلا اللحظة الحاضرة. فالمؤمن لا يجعل إدراك الناس شرطاً لطاعته؛ يكفيه أن الأمر جاء ممن يرى الغيب كله.

كم من مشروع حق يبدو في بدايته غريباً، لأن الناس يقيسونه بواقع لم يتغير بعد! يرون السفينة ولا يرون الطوفان، فيحسبون البناء جنوناً. أما صاحب الوحي فيرى بعين الخبر ما لا تراه عين الحس.

والسفينة في معناها الروحي ليست خشباً ومسامير فحسب؛ إنها كل طاعة يبنيها الإنسان اليوم لتكون له نجاةً غداً. الصلاة سفينة، والصدق سفينة، والتوبة سفينة، والعلم الذي يقي من الفتنة سفينة. نبنيها في أيام السعة، لأن لحظة الطوفان ليست وقت البحث عن الخشب.

(ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ).

كانوا أكثر عدداً، وأقوى حضوراً، وأطول استقراراً في الأرض؛ لكنهم صاروا الباقين خارج السفينة. واللفظة تحمل مفارقة موجعة: ظنوا أنهم باقون لأنهم رفضوا أن يركبوا مع نوح، فإذا ببقائهم خارجها هو الذي قادهم إلى الزوال.

قد يبدو الإيمان لأول وهلة فراقاً عن الجماعة، لكن النجاة قد تكون في هذا الفراق. وقد يبدو السير مع الأكثرية أمناً، فإذا بالأكثرية كلها تمضي إلى ماء واحد.

ليست العبرة أن تكون مع من يملأون الأرض عدداً، بل أن تكون في الموضع الذي أمرك الله أن تكون فيه حين يأتي أمره.

ثم عادت الالزمة:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةًٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَھُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

عزيزٌ حين فتح بين نوح وقومه بعد صبر طويل، فلم يمنع كثرتهم حكمه، ولم تحل قوتهم بينهم وبين الماء.

ورحيمٌ حين حفظ المؤمنين في سفينة صغيرة وسط عالم يغرق، وحين جعل النجاة متعلقة بالإيمان لا بالطبقة ولا بالثروة ولا بنظر الناس.

وفي قصة نوح يتعلم القلب أن تأخر النتيجة لا يعني غياب الله، وأن طول الطريق لا يدل على ضياع الخطوات. قد يمهّل الله الباطل حتى يستوفي فرصته كاملة، ويمتحن الحق حتى يظهر صدقه كاملاً، ثم يأتي الفتح في لحظة واحدة، فيطوي قروناً من المكابرة.

إن العزيز الرحيم لم يكن غائباً خلال الانتظار. كان يبني في قلب نوح سفينةً من اليقين، قبل أن يأمره أن يبني سفينة الخشب.

عاد: حين تتحول القوة من نعمة إلى حجاب

(كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾).

تعود العبارات نفسها، لكن القلوب التي تستقبلها مختلفة. للحقيقة واحدة، وأمراض البشر تنوع.

قال نوح لقومه: (أَلَا تَتَّقُونَ)، وقال هود لقومه الكلمة نفسها؛ لأن الدواء الأصلي واحد، وإن تغيرت صور الداء. ما يحتاج إليه الإنسان في كل عصر هو أن يستشعر حدوده أمام الله، وألا يتخذ اللحظة الحاضرة عن العاقبة.

وكان مرض عاد هو الافتتان بالقوة.

لقد منحهم الله أجساداً شديدة، وأرضاً واسعة، وقدرةً على البناء، فوقع التحول الخطير: بدل أن تدلهم النعمة على المنعم، حجبهم عنه. وحين تطول صحة الإنسان للقوة، قد ينسى أنها وديعة، ويتعامل معها كأنها جوهر ذاتي لا يزول.

ليس الضعف وحده امتحاناً؛ القوة امتحان أشد خفاءً. فالضعيف يشعر بحاجته، أما القوي فقد تغريه قدرته بأن يتخيل الاستغناء. والحنة التي تأتي في صورة نعمة أخطر من محنة الألم؛ لأن الألم يدفعك إلى البحث عن الله، أما النعمة إذا لم يوقظها الشكر فقد تدفعك إلى نسيانه.

ومع ذلك جاءهم هود بوصفه أخاهم، لا خصماً لحضارتهم. لم يأت ليهدم عمرانهم لأنه عمران، بل لينع العمران من أن يهدم الإنسان. ولم يعترض على القوة في ذاتها، بل على انفصالها عن الغاية الأخلاقية.

فالرسالات لا تحارب قدرة الإنسان على البناء؛ إنها تحارب أن يبني عالماً ويهبط في داخله، وأن تتسع مدنه بينما يضيق ضميره، وأن يقيس التقدم بما ارتفع من الجدران لا بما ارتفع من الإنسان.

المحطة الثانية والعشرون

أبنية عالية... ومعنى منخفض

واجه هود قومه بهذا السؤال:

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ).

الرَّيع هو الموضع المرتفع الظاهر، وكانوا يقيمون على المرتفعات أبنيةً وعلامات ضخمة، لا حاجة حقيقية، بل للعبث والمباهاة واستعراض القدرة.

لم يقل لهم: أتبنون؟ فالبناء من عمارة الأرض. وإنما أنكر الغاية: (تَعْبَثُونَ).

وهنا يضع القرآن فاصلاً دقيقاً بين الحضارة والعبث. ليس كل ما يستطيع الإنسان بناءه جيداً بأن يُبنى، وليس كل إنجاز ضخم إنجازاً عظيماً. قد يكبر الحجر ويصغر المعنى، وقد يعلو المبنى وينخفض الإنسان الذي أقامه.

العبث هو أن تنفق القوة فيما لا يحقق حقاً ولا يحفظ كرامة ولا يعمر حياة، وإنما يملأ فراغ الغرور. أن تصبح المنشآت مرايا تنظر فيها الأمة إلى قوتها، لا وسائل تؤدي بها رسالتها.

وما تزال هذه الآية تمثي في مدن الإنسان المعاصر، تسأل أمام الأبراج والمنشآت والمشروعات الهائلة: ما الغاية؟ أهذا عمرانٌ يخدم الإنسان، أم استعراضٌ يبتلع موارده كي يقال إننا قادرون؟ أهذه القوة جسدٌ لرسالة، أم زخرفة فوق فراغ؟

لا يذم القرآن الجمال ولا الفخامة من حيث هما جمال ونفخامة، ولكنه يذم أن تتحول القدرة إلى لعب، وأن يبني الإنسان علامةً على الأرض بينما لا يبني في روحه شيئاً.

إن الحضارة لا تقاس بما تقيمه في الفضاء وحده، بل بما تقيمه في الضمير. وقد تستطيع أمة أن تحت الجبال، ثم تعجز عن نحت شهوة صغيرة من نفوسها. وتقدر على رفع الصروح، ولا تقدر على رفع الظلم عن ضعيف.

ثم قال هود:

(وَتَخَذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ).

كانهم يبنون بناء من يريد أن يغلب الموت بالحجر.

إن في الإنسان رغبةً عميقة في البقاء؛ ولأنه لا يستطيع منع جسده من الفناء، يحاول أحياناً أن يزرع نفسه في ممتلكاته وآثاره. يبني ما يظن أنه سيخلد اسمه، ويجمع كأن الأعوام قابلة للتخزين، ويثبت الجدران كأنه بذلك يثبت الزمن.

قال: **(لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)**، فالكلمة تكشف الوهم المستتر خلف الإفراط في التشييد: أن ما نبنيه سيمنحنا شيئاً من مناعة الخلود.

لكن الحجر لا يمنح بانيه عمراً، والقصور لا تمنع أصحابها من الرحيل. ربما بقي البناء بعدك، ولكنه لا يقيك فيه. وقد يصير البيت الذي بذلت عمرك في توسيعه مكاناً يسكنه من لا يعرف كيف كنت تفكر، ويصبح ما جمعته موضع نزاع بين من تركتهم.

ليس اخلل أن يبني الإنسان بيتاً متيناً، بل أن يبني كأنه لن يغادره. وليس الزهد أن يهمل الأرض، بل أن يعمرها بيد ويظل قلبه متخففاً منها؛ يعرف أنه مستخلف لا خالد، وعابر لا مالك أبدي.

إن الإيمان بالآخرة لا يحوّل الدنيا إلى خرابة، بل يحرق عمرانها من عبادة الخلود. تبني لأنك مأمور بالإصلاح، لا لأنك تتوهم أنك ستنتصر على الموت بالإسمت والحجر.

المحطة الثالثة والعشرون

القوة حين تفقد الرحمة

ثم انتقل هود من عبث البناء إلى عنف البطش:

(وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ).

لم يقل: وإذا عاقبتم، بل قال: (بَطِشْتُمْ). والبطش أخذٌ بالقوة، ثم وصف كيفيته: (جَبَّارِينَ)؛ بلا ميزان يضبط، ولا رحمة تخفف، ولا عدل يحدد.

هنا تكشف السورة أن مشكلة عاد لم تكن في امتلاك القوة، بل في انفصال القوة عن الأخلاق.

القوة إذا دخلت يداً متقية صارت حمايةً للضعيف وإقامةً للعدل، وإذا دخلت نفساً مستعلية صارت وسيلةً لإشباع الجبروت. والأداة واحدة، لكن القلب الذي يحملها يغير معناها.

كانوا يبنون كأنهم خالدون، ويبطشون كأنهم غير محاسبين. وهذان الوهمان متصلان: من نسي موته نسي حسابه، ومن ظن أن سلطانه دائم لم ير سبباً لكبح بطشه.

والجبار لا يكتفي بإيقاع الألم؛ إنه يريد أن يشعر ضحيته بالفناء أمامه. يريد من البطش أن يكون رسالة نفسية: لا قوة فوق قوتي، ولا صوت بعد صوتي. ولذلك يتجاوز العقوبة إلى الإذلال، ويتجاوز الدفاع إلى الانتقام، ويتجاوز الحاجة إلى الاستمتاع برؤية العجز في الآخر.

إن القوة التي نحتاج إلى تحطيم كرامة الناس كي نثبت نفسها قوة خائفة في أعماقها. والواقع لا يحتاج إلى الإهانة، والعدل لا يتلذذ بالعقاب، والرحيم إذا اضطر إلى الأخذ لم ينس أن أمامه إنساناً.

لقد أراد هود أن يعيد القوة إلى وظيفتها. فالنعمة لا تُشكر بمجرد القول، بل بأن تُستخدم وفق مراد المنعم. وشكر القدرة عدل، وشكر العلم هداية، وشكر المال إنفاق، وشكر المنصب خدمة. أما من ذكر الله بلسانه ثم استخدم نعمه في قهر عباده، فقد كذبت أفعاله دعواه.

ثم عاد بهم إلى أصل العلاج:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ).

(أَمَدُّكُمْ): لم تنشأ قوتكم من فراغ، ولم تصنعوا المادة الأولى لأنفسكم. كل ما تملكونه مددٌ يصل إليكم من الله؛ أجسادكم، وعقولكم، وأرضكم، وأسباب عمرانكم.

ومن عرف أن النعمة مددٌ لم يتعامل معها كملكية مستقلة. إنها تصل، وتستمر بإذن الله، ويمكن أن تنقطع بأمره.

قال: (بِمَا تَعْلَمُونَ)، كأنه يستدعي معرفتهم بنعم تتجسد حولهم، لا تحتاج إلى برهان بعيد:

(أَمَدُّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ).

أنعامٌ تحفظ أسباب العيش، وبنون يمتد بهم العمر اجتماعياً، وجنات تمنح الثمر والجمال، وعيون يتدفق منها أصل الحياة. ليست نعماً منفصلة، بل منظومة إحاطة: رزق، وقوة بشرية، وأرض مشمرة، وماء.

كان ينبغي لهذه الإحاطة أن تنتج قلباً ممتناً، لكنها صنعت عندهم شعوراً بالاستحقاق. ومع ثبات النعم قد ينتقل الإنسان من الشكر إلى الاعتياد، ثم من الاعتياد إلى الغفلة، ثم من الغفلة إلى توهم أن ما عنده حق طبيعي لا يمكن أن يزول.

وهنا تبدأ النعمة نفسها بالتحول إلى حجاب.

كلما اتسعت العطايا دون أن يتسع معها الشكر، ازداد خطرهما. فالنعمة التي لا تقودك إلى الله قد تقودك إلى نفسك، والنفس إذا رأت حولها أسباب القوة نسبت إليها ما كان فضلاً من ربها.

الخوف الذي يصدر عن الرحمة

قال هود:

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ).

لم يقل: إني أتوعدكم؛ بل قال: (أَخَافُ عَلَيْكُمْ).

إنه لا ينتظر سقوطهم ليثبت أنه كان محقاً، ولا ينظر إلى العذاب بوصفه انتصاراً شخصياً على من كذبوه. إنه يخاف عليهم، لأن قلب النبي لا ينفصل عن الرحمة حتى وهو يحمل الإنذار.

وهذا هو الفارق بين الإنذار الرباني والشماتة البشرية. الشامت يذكر العقوبة وهو يتنى وقوعها، أما الناصح فيذكرها لعلها لا تقع. صوته شديد لأن الخطر شديد، لكن منبع الشدة رحمة.

والتخويف في القرآن ليس تعذيباً نفسياً للإنسان، بل إنقاذاً له من عذاب أعظم. فالذي يرى بيتاً يحترق لا يكون قاسياً حين يصرخ في النائم؛ تكون القسوة أن يتركه مستريحاً حتى تبلغه النار.

لكن قوم عاد كانوا قد أغلقوا على أنفسهم منافذ التأثر:

(قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَطْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ).

هذه ليست مجرد عبارة رفض، بل إعلان موت الحساسية الأخلاقية. فقد صار الوعظ وعدمه سواءً؛ لا تحدث الكلمة فيهم فرقاً، ولا يفتح التذكير ثغرة، ولا يوقظ الخوف سؤالاً.

ومن أخطر ما يصيب القلب ألا يعود يتأثر. فالذنب الذي يؤمك ما زال باب التوبة مفتوحاً في داخلك، أما الذنب الذي تمارسه دون اضطراب، والنصيحة التي تسمعها فلا تحرك فيك شيئاً، فذلك مرض أعمق.

إن القسوة لا تعني دائماً أن يبغض الإنسان الحق؛ قد تكون أن يسمعه فلا يشعر بشيء. يمر النداء على أذنه كما يمر الهواء على جدار. وهنا يصبح الوعظ صوتاً خارجياً، لأن الداخل الذي كان يستقبله قد أغلق بطبقات من الإصرار.

ثم قالوا:

(إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠٠﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ).

تحتمل كلمتهم معنى أن ما هم عليه ليس إلا عادة الأولين وطريقتهم، أو أن ما جاء به هود من الحديث عن البعث والعذاب ليس إلا أحاديث السابقين. وفي كلا المعنيين محاولة لإفراغ الإنذار من سلطانه.

إنهم يحتمون بالماضي مرة أخرى: هكذا عاش الأولون، أو هكذا كانت أساطيرهم. فإذا كان الفعل قديماً فهو عندهم آمن، وإذا كان التحذير قديماً فهو عندهم غير جدير بالتصديق.

ثم حسمو موقفهم: (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ).

لم يقولوا: نرجو ألا نعذب، بل نفوا العذاب بثقة. وهنا يبلغ الغرور ذروته: أن يتحول طول الإمهال إلى دليل أمان، وأن يظن الإنسان أن تأخر الحساب إلغاءً له.

كل يوم مر دون عقوبة زادهم شعوراً بأن هوداً مخطئاً، ولم يدركوا أن كل يوم كان فرصة جديدة للرجوع. لقد فهموا الرحمة فهماً معكوساً؛ جعلوا الإهمال براءةً، بدل أن يروه باباً للتوبة.

كم يخطئ الإنسان حين يقيس رضا الله باستمرار النعمة! قد يتسع رزقه وهو يتبعد، ويقوى سلطانه وهو يفسد، ويظل الباب مفتوحاً أمامه لا لأن طريقه صحيح، بل لأن الحجة لم تستوف بعد، ولأن الله يمهله لعل قلبه يعود.

المحطة الخامسة والعشرون

الريحُ التي كشفت هشاشةَ ما ظنوه خالداً (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ).

بين الكلمتين اختصر تاريخ طويل: تكذيبُ استقر، وإمهالُ امتد، وإنذارُ تكرر، ثم جاءت النهاية.

لم يقل النص هنا إن حضارتهم ضعفت بالتدريج حتى انهارت، بل جاءت كلمة (فَأَهْلَكْنَاهُمْ) لتكشف أن القوة البشرية، مهما بدت صلبة، معلقة بإذن الله. فإذا جاء الأمر لم تحتج القدرة الإلهية إلى صراع متكافئ معها.

لقد كانوا قوماً يقولون: (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)، فأهلكهم الله بالريح؛ بشيء لا يستطيعون الإمساك به، ولا يستطيع أشدهم أن يبارزه. دخلت الريح أبنيتهم العالية، وعبرت حصونهم، وحملت أجسادهم التي اغتروا بقوتها.

وهكذا تأتي الهزيمة أحياناً من الجهة التي لم تدخل في الحساب. يبني الإنسان جدرانته في مواجهة العدو الذي يعرفه، ثم يأتي قدر الله من ثغرة لا تخطر له. فما دام الأمان منفصلاً عن الله، فإن كل حصن يحمل نقطة سقوطه في داخله.

إنهم اتخذوا مصانع لعلهم يخلدون، فإذا بالآنية بقيت لحظات عاجزة عن حماية بانيها. فالشيء الذي صنعه الإنسان ليشهد قوته قد يتحول بعده إلى شاهد على فنائه.

كم يبدو الجبروت كبيراً وهو قائم، وكم يبدو صغيراً بعد سقوطه! ما إن ينسحب منه الخوف الذي زرعه في الناس حتى تظهر حقيقته: كان بناءً من الوهم، تقيمه رهبة المظلومين أكثر مما تقيمه قوة الظالم.

ثم قالت السورة:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً^ط وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَھُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

كانت عاد آية في القوة، فلما كفرت صارت آية في السقوط.

وعاد اسما الله ليصححاً رؤية القلب:

العزیز: فلا قوة تغالب قوته، ولا بناء يحجب أمره، ولا بطش ينجو من عدله.

الرحیم: فقد أرسل إليهم أخاهم، وذكرهم بنعمه، وفتح لهم أبواب الرجوع، وحذرهم قبل أن تأتي الرياح.

ومن قصة عاد يتعلم الإنسان أن الحضارة لا يحفظها ارتفاع جدرانها إذا انهارت قيمها، وأن القوة التي لا تسجد للحق تبدأ في تدمير صاحبها ولو بدت في أوجها.

فالسقوط لا يبدأ يوم تأتي الرياح؛ يبدأ يوم تتحول النعمة إلى غرور، والعمران إلى عبث، والقدرة إلى بطش، والنصيحة إلى صوت لا يسمعه القلب.

أما الريح، فليست إلا اللحظة التي ظهر فيها للعيون ما كان قد وقع في الأرواح منذ زمن.

المحطة السادسة والعشرون

ثمود: الطمأنينة التي تحولت إلى غفلة

(كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

مرة أخرى يتردد النداء نفسه، كأنه صوت واحد يمر عبر القرون، وتلقاه في كل مرة وجوه جديدة:

(أَلَا تَتَّقُونَ) .

فالوحي، في جوهره، لا يتبدل بتبدل الأزمنة. الإنسان هو الذي يغير شكل صمته، أما حاجته إلى الله فباقية. قد يعبد قوم حجراً، ويعبد آخرون قوة، ويعكف غيرهم على لذة أو شهرة؛ لكن الشفاء واحد: أن يعود القلب إلى ربه، وأن يقيم بينه وبين السقوط وقايةً من التقوى.

وكان صالح عليه السلام أخاهم؛ خرج من أرضهم، وعرف طبيعتهم، وتكلم بلسانهم. لم يكن غريباً جاء يسيء فهم حضارتهم، ولا عدواً يريد انتزاع خيراتهم. ولهذا كان تكذيبهم أشد دلالةً على أن الأزمة ليست في غموض الرسول، بل في وضوح ما يطلبه منهم.

إن الحق حين يأتيك من البعيد قد تقول: لم يفهم حياتي. أما حين ينبثق من داخلك، وينطق به من يعرفك، ثم ترفضه، فإنك تفقد كثيراً من أذارك.

وأعاد صالح ميثاق الأنبياء:

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ).

أنا لا أغشكم حين أقول إن هذا الاستقرار ليس أبدياً، ولا أحسدكم على جناتكم وعيونكم، ولا أريد أن أنتزع سلطاناً أو ثروة. إنني أحمل إليكم الأمانة التي تحفظ النعمة من أن تتقلب نقمة.

ثم قال:

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ).

فالذي يوقظ الناس من غفلتهم قد يتهمون بأنه يريد نصيباً من دنياهم؛ ولذلك يعلن النبي منذ البداية أن يده خالية من مطالبهم، وأن قلبه معلق بما عند رب العالمين.

إن صدق الرسالة يظهر في هذا التحرر: لا يتغير الخطاب حين يقل العطاء، ولا تصبح الحقيقة ألطف لأصحاب النفوذ وأقسى على الضعفاء، ولا يُقاس النجاح بما يتراكم لصاحب الدعوة، بل بما يبقى أميناً في يديه من نور الله.

أَتُرْكَونَ فيما هَاهُنَا آمِنِينَ؟

التفت صالح إلى عالمهم المزدهر، ثم طرح السؤال الذي يهز وهم الاستقرار:

(أَتُرْكَونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ).

(فِي مَا هَاهُنَا): في هذا الذي يملأ أبصاركم الآن؛ في البيوت والجنات والعيون والزروع والنخيل والجبال. أتظنون أن هذا المشهد سيظل قائماً لأنه قائم اليوم؟ أتَحْسِبُونَ أنكم تُرْكَونَ فيه بلا انتقال ولا حساب؟

إن أخطر ما يصنعه الاستقرار أنه يمنح الإنسان وهم الدوام. عندما تتكرر الأيام في صورتها المألوفة، يظن القلب أن الغد نسخة مضمونة من اليوم. يستيقظ في البيت نفسه، ويرى الممتلكات نفسها، ويلتقي الوجوه نفسها، فيتسلل إليه شعور خفي بأن هذا البناء لا يمكن أن ينقض.

لكن الوجود كله يقول غير ذلك. لا شيء من (مَا هَاهُنَا) يحمل ضمان بقائه في ذاته. الصحة قد تنقلب في ساعة، والثراء قد يتبدد، والبيت قد يفارق ساكنه أو يفارقه ساكنه، والمدينة التي تضج بالحياة قد تصبح خراباً في كتاب.

لا تريد الآية أن تملأ الإنسان هلعاً، بل أن تحرره من السكون الكاذب. فالأمان الحقيقي ليس أن تتوهم أن النعمة لن تزول، بل أن تكون علاقتك بالله ثابتة إذا زالت. وليس الأمن أن يبقى العالم مطابقاً لرغبتك، بل أن يبقى قلبك مهتدياً في عالم يتغير.

ثم فصلت السورة هذا النعيم:

(فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ).

جنان تحتضنهم، وعيون تجري، وزروع تمنحهم القوت، ونخل ناعم الثمر متراكبه. صورة رخاء يحيط بالإنسان من كل جهة؛ الماء تحت قدميه، والثمر فوق رأسه، والأرض بين يديه.

غير أن كثرة النعمة قد تطمس السؤال عن مصدرها وغايتها. يأكل الإنسان الثمرة، ولا يرى الرحمة التي أنضجتها؛ ويشرب الماء، ولا يشعر باليد التي ساقته؛ ويسكن الجنة، حتى يظن أنها نبئت له لأنه يستحقها.

الشكر ليس كلمة تقال بعد الطعام فحسب؛ إنه رؤية كاملة للعالم. أن ترى في كل نعمة رسالة محبة واختباراً للأمانة، وأن تسأل: كيف أعبد الله بما أعطاني؟ فالمال الذي لا يصنع رحمة، والقوة التي لا تحرس عدلاً، والخصب الذي لا يوقظ حمداً، نعم لم تبلغ غايتها في صاحبها.

إن الله لم يذم جناتهم ولا عيونهم ولا زروعهم؛ وإنما أنكر أن يسكن الإنسان وسط هذا الجمال بقلب ميت. فالمشكلة ليست في وفرة الأشياء، بل في فقر المعنى الذي تستقبله به.

ينحتون الجبال... ولا ينحتون من نفوسهم الغرور

(وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ).

بلغت ثمود من القدرة الهندسية أن جعلت الجبل بيتاً. لم تكن مساكنهم من مواد ضعيفة يهددها الريح والمطر، بل حفروا وجودهم في قلب الصخر، كأنهم يريدون أن يربطوا أعمارهم بصلابة الجبال.

وكلمة (فَارِهِينَ) تحمل معاني الحذق والنشاط والبطر؛ فهم بارعون فيما يفعلون، مأخوذون بمهارتهم، ينظرون إلى أثر أيديهم فيشعرون أن الإنسان بلغ من القوة ما يغنيه عن الخوف.

لكن القرآن يقف أمام هذه البراعة ولا يسأل فقط: كيف بنيتهم؟ بل: ماذا صنع البناء في قلوبكم؟

فالتقدم التقني لا يساوي التقدم الإنساني. قد يتعلم البشر كيف يشقون الجبال، ولا يتعلمون كيف يشقون في قسوة القلب طريقاً للرحمة. وقد يسيطرون على المادة، وتظل أهواؤهم مسيطرة عليهم. يكتشفون قوانين الكون، ويجهلون القانون الأخلاقي الذي يحفظهم من أنفسهم.

إن أعظم عجز ليس أن يعجز الإنسان عن إخضاع الصخر، بل أن يعجز عن إخضاع شهوته للحق. وأشد الجهل ليس الجهل بطريقة البناء، بل الجهل بالغاية من الوجود.

لقد ظنت ثمود أن البيوت المنحوتة في الجبال تمنحها أماناً لا ينقض. ولكن الجبل الذي لا يستطيع عدو اقتحامه لا يمنع أمر الله إذا جاء. إنهم حصّنوا حياتهم من الخارج، وتركوا أرواحهم بلا حصانة.

وما أكثر ما يكرر الإنسان هذا الخطأ: يؤمن بيته وماله ومستقبله، ويحيط جسده بأسباب الحماية، لكنه يترك قلبه عرضةً لكل شبهة وشهوة. يخشى خسارة الممتلكات أكثر مما يخشى خسارة نفسه، ويحسب سلامة الجدار أهم من سلامة الضمير.

ولهذا أعاد صالح النداء:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا).

لم يأمرهم بالخروج من بيوتهم ولا بترك جناتهم، بل أمرهم أن يدخلوا التقوى إليها. أن يظل البيت بيتاً لا صنماً، والمهارة نعمة لا مصدر استعلاء، والعمران أمانة لا حيلة ضد الموت.

فالإيمان لا يطالب الإنسان بأن يكون ضعيف الصنعة، بل أن تكون صنعته قوية وعبوديته أقوى. أن يعمر الجبل ولا يظن أن الجبل يحميه من الله، وأن يبدع بيده ثم يسجد بقلبه لمن وهبه اليد والعقل والحجر.

لا تطيعوا أمرَ المسرفين

قال صالح:

(وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ).

لم يكن فساد ثمود عمل أفراد متفرقين فقط؛ كانت وراءه قيادةٌ تصنع الاتجاه العام، سماهم القرآن المسرفين.

والإسراف أوسع من تجاوز الحد في الطعام والمال؛ إنه مجاوزة الحد في النظر والقوة والسلطة والسلوك. فكل من أعطى نفسه ما ليس لها، ووضع الأشياء خارج ميزانها، فقد دخل في معنى الإسراف.

ثم وصفهم بصفة تكشف فسادهم الكامل:

(يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ).

قد يفسد الإنسان في جانب ويصلح في آخر، لكن هؤلاء صار الفساد مشروعهم الغالب؛ لا يتركون وراء سلطانهم موضعاً يزكو. وإذا ادعوا الإصلاح، فإن أعمالهم تكذب شعاراتهم.

إن الآية لا تحذر من أفعال المسرفين فحسب، بل من طاعة أمرهم؛ لأن الفساد الكبير يحتاج إلى شبكة من الطاعة. لا يصنعه رأس واحد مهما طغى، بل تصنعه أيدي

تنفذ، والسنة تبرر، وقلوب تلوذ بالصمت، وجاهير تخط بين هبة المتصدر وحق الطاعة.

كم من إنسان يقول: أنا لم أفسد، إنما نفذت الأمر! لكن القرآن يعيد المسؤولية إلى الحلقة كلها. فالطاعة ليست فعلاً محايداً، ومن أعان على فساد بحجة التبعية كان جزءاً من حركته.

والطاعة العمياء تُريح النفس من عبء القرار، تمنحها قائدًا يفكر بدلاً منها، ثم تمنحها عذراً تلقي عليه النتيجة. لكن الله وهب الإنسان عقلاً وضميراً، ولن يعفيه من مسؤوليته لأنه تنازل عنهما لغيره.

لقد كان صالح يريد تحرير قومه من سلطة النخبة التي تصوغ لهم معاييرهم. فالتوحيد ليس انتقالاً في الشعائر وحدها، بل استرداد لحق الضمير في ألا يطيع أحداً في معصية الله.

ومن هنا كان رفض المسرفين لصالح حتمياً؛ لأن كل دعوة تعيد الناس إلى ربهم تنتزع من المفسدين أهم مصادر قوتهم: الطاعة غير المشروطة.

حين يتحولُ وضوحُ المصلح إلى تهمة

قالوا لصالح:

(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٠٠﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

مرة أخرى تظهر تهمة اختلال العقل أو الوقوع تحت أثر السحر. فحين يعجز المجتمع الغارق في عاداته عن فهم الإنسان المتحرر منها، يتهمه في عقله.

إنه يقول لهم: هذه الحياة ليست خالدة، وهذه النعم أمانة، وهذه القيادات مفسدة؛ وهم يرون كلامه خروجاً على «الطبيعي». لكن الطبيعي في المجتمع المريض قد يكون هو المرض نفسه. وحين يشفى فردٌ من الوهم العام يبدو غريباً؛ لأنه لم يعد يرى ما اتفقوا على تسميته حقيقة.

ثم قالوا: (مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا).

استنكروا أن يحمل البشر رسالةً من السماء، مع أن بشرية الرسول هي التي تجعل الاقتداء به ممكناً. لو كان ملكاً لقالوا: كيف نطبق طريقه وهو ليس من طبيعتنا؟ لكن المكذب لا يبحث عن الصورة التي تقنعه، بل عن الاعتراض الذي يؤجل استجابته.

ومع ذلك طلبوا آيةً حسية: (فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

فجاءتهم الآية؛ لا فكرةً يجادلون فيها، بل ناقةً يرونها، ويتصل امتحانهم بها كل يوم:

(قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٠٠﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ).

كان الماء مورد الحياة، فجعل الله للناقة يوماً ولهم يوماً معلوماً. لم يكن الامتحان في قدرتهم على معرفة الحق بعد ظهور الآية، بل في قبولهم أن تضع مشيئة الله حداً لرغباتهم.

فالإنسان قد يطلب العلامة، فإذا جاءت اكتشف أن مشكلته لم تكن في نقص الدليل، بل في كلفة الطاعة. لقد أرادوا آية تدهشهم، لكن الآية جاءت معها مسؤولية: اتركوا لها نصيبها من الماء.

وهنا ينكشف معنى عظيم: ليست الغاية من الآيات أن تمنح الإنسان فرجةً خارقة، بل أن تضعه أمام قرار أخلاقي. ما قيمة أن ترى المعجزة إن لم تتغير علاقتك بأمر الله؟

كانت الناقة تمشي بينهم حجةً حية، لكن وجودها كان يذكرهم كل يوم بأن ملكهم للماء ليس مطلقاً، وأن فوق إرادتهم أمراً يجب أن يُطاع. وهذا ما لا يحتمله الاستكبار: قد يقبل وجود الله فكرة بعيدة، لكنه يرفض أن يقطع أمر الله جزءاً من مصالحة.

عقروا الآية لأنهم لم يستطيعوا عقْر معناها

(فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ).

جاءت الجريمة في كلمة واحدة: (فَعَقَرُوهَا).

لم تكن الناقّة قد اعتدت عليهم، ولم تكن مبهمة الدلالة؛ بل كانت الآية التي طلبوها بأنفسهم. ومع ذلك قتلوها.

إن النفس حين يسيطر عليها الهوى قد تطلب الدليل، ثم تحاربه إذا جاء مخالفاً لمصلحتها. فليست كل دعوة إلى مزيد من البراهين صادرة عن بحث صادق؛ ربما كان الإنسان يؤجل الطاعة بسؤال جديد، فإذا أُجيب اخترع سؤالاً آخر.

عقروا الناقّة، ولكن هدفهم الأعمق كان عقْر السلطة المعنوية التي تمثلها. أرادوا أن يحو من أرضهم العلامة التي تذكرهم بأن إرادتهم محدودة، وأن للماء رباً غيرهم.

هكذا يفعل المفسدون أحياناً: يهاجمون الرمز الظاهر لأنهم يكرهون الحقيقة التي يشير إليها. يكسرون المرأة لأنها أظهرت وجوههم، ويظنون أن تحطيم الشاهد يغير الواقع.

ثم قال: (فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ).

لكنه ندم جاء بعد أن عبروا الحد الأخير. وليس كل ندم توبة؛ فقد يندم الإنسان لأنه رأى العقوبة، لا لأنه أبصر قبح الذنب. يندم على النتيجة التي أصابته، لا على الحقيقة التي خانها.

التوبة ندم يرد القلب إلى الله ما دام زمن الاختيار مفتوحاً، أما الندم عند حضور العذاب فاعتراف اضطراري لا يغير المصير. وحين يرى الإنسان النار التي أنذره بها الوحي، لا تعود معرفته إيماناً بالغيب، بل مشاهدة لا يملك دفعها.

(فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ).

هم الذين مسوا الناقة بسوء، لكن العذاب هو الذي أخذهم. ظنوا ساعة الجريمة أنهم الفاعلون المتحكمون، فإذا بهم بعد لحظة مفعولٌ بهم لا يملكون لأنفسهم نجاة.

وما أشد الفرق بين اليد حين امتدت إلى الآية بطغيان، والجسد حين أخذه أمر الله! لقد بدت قدرتهم لحظة كبيرة، ثم انكمشت أمام القدرة التي لا تُرد.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةًٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَھُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

الناقة آية، وهلاك مكذبيها آية، وبقاء قصتهم بعد زوال حضارتهم آية.

العزیز: لا يُعجزه من نحت الجبال، ولا تجمي الصخرة قلباً أعلن الحرب على أمره.

الرحيم: منحهم الجنات والعيون، وأرسل أخاهم صالحاً، ولبث ينذرهم، ثم أعطاهم الآية التي طلبوها، وحدد لهم الحد الذي لا يتجاوزونه.

ولم يكن التكليف فوق طاقتهم: يومٌ لهم ويومٌ للناقة، وامتناع عن أذيتها. لكن النفس المستكبرة لا تقيس الأمر بحجمه، بل بمن أصدره؛ فهي ترفض القيد الصغير لأنها يعلن أن فوقها سيادةً أعلى.

ومن ثمود تتعلم أن الإنسان قد يبلغ غاية المهارة في تشكيل الحجر، ويبقى عاجزاً عن تشكيل نفسه وفق الحق؛ وأن حصون الخارج لا تنفع إذا كان الخراب قد استقر في الداخل.

لقد نحتوا في الجبال بيوتاً آمنين، لكنهم لم ينحتوا في قلوبهم موضعاً للتقوى؛ وحين جاء العذاب بقيت الجبال، وغاب الذين ظنوا أنهم أخذوا منها.

المحطة الثانية والثلاثون

لوط: حين يصبح الانحرافُ عرفاً ويغدو الطهرُ غريباً

(كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾).

ينتقل موكب السورة من قوم أفسدتهم القوة والعمران إلى قوم أصاب الفساد فيهم فطرة العلاقة الإنسانية، حتى لم يعد الانحراف حادثة تقع في هامش المجتمع، بل صار اتجاهًا عامًا يدافع عنه الناس ويطردون من يعترض عليه.

ومع ذلك جاءهم لوط عليه السلام بالعبرة ذاتها:

(أَلَا تَتَّقُونَ).

فالتقوى هنا استعادة للحدود التي ضاعت. إنها تذكير بأن الجسد ليس أرضاً بلا شريعة، وأن الرغبة ليست إلهاً يحق له أن يقرر وحده معنى الصواب والخطأ، وأن وجود الميل في النفس لا يحوله تلقائيًا إلى حق أخلاقي.

لقد جعل الله في الإنسان شهوات لتؤدي وظائفها داخل ميزان يحفظ الفرد والأسرة والمجتمع. فليست الفضيلة في قتل الغريزة، ولا الحرية في إطلاقها من كل قيد؛ وإنما كمال الإنسان أن يقود رغبته بنور الوحي، لا أن تُساق كرامته خلف كل ما تشتهي نفسه.

إن الحيوان تتحرك به الغريزة حيث تدفعه، أما الإنسان فقد مُنح قدرةً على أن يقف بين الرغبة والفعل، وأن يسأل: ماذا يريد الله مني؟ في هذه المسافة الصغيرة بين الميل والاستجابة تتجلى المسؤولية، ويولد المعنى الأخلاقي.

وقال لوط: (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ). فالذي يواجه المجتمع بحقيقة لا يجب سماعها ليس بالضرورة عدوًّا له؛ قد يكون أكثر الناس إخلاصًا لسلامته. والمجاملة التي تترك الإنسان يسير إلى خرابه ليست رحمة، وإن لبست ألفاظ اللطف.

إن الأمانة تقتضي ألا يغير الرسول تعريف الخير كي يرضى الناس، ولا أن يسمي الانحراف اختلافًا بريئًا حين يكون في ميزان الله فسادًا. فالحقيقة لا تصبح قاسية لأنها تصدم الهوى؛ القسوة الحقيقية أن نخفي الداء عن صاحبه حتى يستفحل.

ثم حرر لوط دعوته من شبهة المصلحة:

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ).

لا يريد من حياتهم شيئًا لنفسه؛ بل يريد لهم أن يستعيدوا أنفسهم. أجره على رب العالمين، ولذلك يقول ما يجب أن يقال، ولو صار وحيدًا في مدينة اختارت أن تعيد تسمية الخطأ حتى لا تشعر بوخزه.

الرغبة حين تعمى عن حكمة الخلق

قال لوط لقومه:

(أَتَأْتُونَ الذُّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۖ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ).

جاء السؤال ليكشف فداحة خروجهم عن الفطرة: أنخصّون الذكران بهذه الفاحشة من بين العالمين، وتتركون ما خلق الله لكم من أزواجكم؟

لم يقل: ما وجدتم، بل قال: (مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ)؛ ليربط العلاقة بخالقها وحكمتها. فالزوجية ليست اختراعاً اجتماعياً عابراً، وإنما بنية مودعة في الخلق؛ يلتقي فيها اختلاف الرجل والمرأة لقاء تكامل، وتنبت منها الأسرة، ويحفظ بها امتداد الحياة.

وفي إضافة الأزواج إلى الرب: (رَبُّكُمْ) تذكير بأن الذي خلق الغريزة هو الذي يعلم الطريق الذي تزكو فيه. فالشرعية ليست سلطة غريبة جاءت لتخنق الجسد، بل هداية من الخالق الذي أحاط بطبيعة الإنسان وعواقب أفعاله.

إن المريض قد يرى الحمية حرماناً لأنه ينظر إلى لذة اللحظة، أما الطبيب فيراها حفظاً لأنه ينظر إلى الجسد كله. والله المثل الأعلى؛ فما حرمه الله على الإنسان لم يحرمه بخلاً عليه، بل رحمةً به، وحفظاً لفطرته، وصيانةً لمجتمعته من مسار لا يرى الهوى نهايته.

ووصفهم بقوله: (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ).

إن العدوان هو تجاوز الحد. وقد تجاوزوا حد الفطرة، وحد الشريعة، وحد الكرامة الإنسانية، حتى تحولت الشهوة من حاجة منضبطة إلى قوة تتحدى نظام الخلق.

والانحراف إذا بقي فعلاً يستحي منه صاحبه كان في القلب بقية حياة، أما إذا تحول إلى هوية يفاخر بها، ثم صار المجتمع يطارد من يذكره بالميزان، فقد انتقل المرض من السلوك إلى البنية الأخلاقية كلها.

إن أخطر لحظة في تاريخ الخطيئة ليست حين تُرتكب أول مرة، بل حين تبدل اللغة من حولها: يُمنح القبيح اسماً حسناً، ويُصور الاعتراض عليه اعتداءً، ويطلب من المجتمع ألا يكتفي بالصمت عنه، بل أن يعترف به معياراً جديداً.

وعندئذ لا يعود الصراع حول فعل منفرد، بل حول من يملك حق تعريف الإنسان: أهو خالقه، أم رغباته المتحولة؟

المحطة الرابعة والثلاثون

المدينة التي هددت نبيها بالنفي

لم يناقش القوم دليل لوط، بل قالوا:

(قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ).

ليس عندهم جواب عن الفطرة التي أفسدوها، ولا عن الأزواج الذين تركوهم، فانتقلوا إلى سلاح المكان: سنخرجك.

إن المجتمع المنحرف لا يكتفي بممارسة انحرافه؛ يريد إسكات الضمير الذي يذِّكره. فوجود إنسان طاهر بين قوم غارقين يزعمهم، حتى لو لم يملك عليهم سلطاناً؛ لأن استقامته تكشف اعوجاجهم بلا كلام.

إنهم يقولون للوط ضمناً: إما أن نتكيف مع فسادنا، وإما أن تخرج من مدينتنا. فالأرض في منطقتهم ملك للأكثرية، والحقيقة ضيف ثقيل ينبغي طرده.

وهنا تتكشف إحدى مفارقات التاريخ: المفسدون يطردون المصلح بدعوى أنه يشوش استقرار المجتمع، مع أن وجوده هو آخر خيط يصل المجتمع بإمكان النجاة. يريدون إخراج الطبيب لأن تشخيصه يؤلمهم، ثم يقولون وحدهم مع المرض.

وكان تهديدهم: (لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ)، أي لست أول من نخرجه ممن يخالفون طريقتنا؛ لقد تحولت المدينة إلى بيئة تطرد الطهر بصورة منظمة. فالفساد حين يستولي على المجال العام لا يعود محتاجاً إلى الدفاع عن نفسه، بل يجعل الفضيلة هي المتهمة.

وقد يقع المؤمن في وهم أن كثرة المنحرفين تقلل من يقينه؛ يتساءل: كيف أكون وحدي ويكون الناس جميعاً على غير ما أرى؟ لكن سورة الشعراء تعلمه أن الحق قد يقف في بيت واحد، وأن مدينة بأكملها قد تخطئ.

فالعدد يصف حجم الظاهرة، ولا يحكم على حقيقتها.

إن القيم لا تُنتخب، والفطرة لا تبدل برفع الأيدي، والحرام لا يصير حلالاً لأن الضجيج المحيط به ازداد.

البراءة من العمل لا القسوة على العامل

قال لوط:

(قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ).

أي: إني لشديد البغض لهذا العمل.

وتأمل دقة التعبير: قال (لِعَمَلِكُمْ). وجه البراءة إلى الفعل الذي يناقض أمر الله، ولم يجعل خطابه شتيمة عمياء تفقده غايته الإصلاحية.

إن الإيمان لا يطلب من المؤمن أن يساوي بين الحق والباطل باسم الرحمة، كما لا يبيح له أن يتحول رفضه للمنكر إلى ظلم وفحش وعدوان. بين التميع والقسوة طريق نبوي: وضوح لا يجامل الخطيئة، ورحمة لا تنسى إنسانية المبتلى بها.

لقد كان لوط يبغض عملهم لأنه يحب لهم النجاة منه. فالحجة الحقيقية لا تصفق للإنسان وهو يضر نفسه، والنصيحة ليست كراهية لمن ننصحه. قد يكون أشد الناس رفضاً للهرض أكثرهم رحمةً بالمريض.

أما الكراهية التي تحمل صاحبها على البغي، أو تسلب الناس حقوقهم، أو تغلق دون التائب أبواب العودة، فليست من هدي الأنبياء. فالله ينهى عن المنكر، ويفتح مع ذلك باب التوبة حتى آخر العمر. ومن تاب صدقاً لم يبق أسيراً لاسمه القديم؛ لأن الإسلام لا يجعل الخطيئة هوية أبدية لصاحبها.

ثم رفع لوط يديه إلى ربه:

(رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ).

لم يقل: نجني من أشخاصهم، بل (مِمَّا يَعْمَلُونَ)؛ فالخطر الحقيقي هو العمل وما يصنعه من مناخ يحيط بالبيت، ويتسلل إلى النفوس، ويقلب المقاييس.

إن المؤمن لا يخاف على أهله من الأذى الجسدي وحده؛ يخاف عليهم أن يآلفوا المنكر حتى يفقدوا النفرة منه، وأن يتكرر أمام أعينهم حتى يبدو عادياً، وأن تتغير لغتهم رويداً رويداً، فتتغير معها أحكام قلوبهم.

وتلك إحدى أخطر قوى البيئة: إنها لا تقنع دائماً بالحجة، بل تطبع بالتكرار. ما يراه الإنسان كل يوم قد يتوقف عن استنكاره، لا لأنه اقتنع بصحته، بل لأن الحس الأخلاقي تعب من الصدمة.

لذلك كان دعاء لوط طلب نجاة للبيت من التيار كله. فبناء الأسرة المؤمنة ليس توفير الطعام والسكن فقط، بل حماية البوصلة الداخلية؛ أن يعرف الأبناء أن انتشار الفعل لا يمنحه الشرعية، وأن المؤمن يستمد ميزانه من الوحي ولو عاش وحده وسط اتجاه معاكس.

قربُ الجسد لا ينجي قلباً اختار الغابرين

استجاب الله لدعاء نبيه:

(فَجَبَّاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٠٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ).

كان المتوقع بعد قوله: (وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ) أن تنتهي الجملة، لكن الاستثناء جاء كجرح في قلب المشهد: (إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)، وهي امرأته التي لم تشارك لو طاً إيمانه.

لقد كانت في بيت نبي، وتحت سقف يمر فيه الوحي، وقريةً من رجل دعا أمةً إلى النجاة؛ لكن القرب المكاني لم يصنع قرباً إيمانياً.

وهذه حقيقة مهيبة: لا أحد ينجو بقرابة الصالحين إذا اختار بقلبه طريقاً آخر. قد يسكن الإنسان إلى جوار النور ولا يفتح له نافذة، وقد يسمع الحق من أقرب فم ولا يدعه يصل إلى روحه.

فالنسب يمنح فرصاً، لكنه لا يمنح نتائج. والبيت الصالح بيئة هداية، لكنه لا يلغي مسؤولية الفرد. كل قلب له موقفه، وكل إنسان يأتي الله وحده.

ووصفها القرآن بأنها (فِي الْغَابِرِينَ)؛ أي من الباقين في العذاب. كانت ظاهرياً من أهل بيت لوط، لكنها باطنياً مع قومه. فالانتماء الحقيقي يتحدد بالولاء القلبي والمسار الأخلاقي، لا بمجرد المكان الذي يقيم فيه الجسد.

وفي المقابل، قد يكون المؤمن بعيداً عن أهله في الدم، لكنه قريب من موكب الأنبياء بالإيمان. إن العقيدة تعيد رسم خريطة القرابة عند المصير: لا تلغي حقوق الأرحام في الدنيا، لكنها تكشف أن رابطة النجاة هي رابطة الإيمان.

ثم قال:

(ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٠﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ).

المطر في أصل صورته رحمة؛ تنتظره الأرض العطشى، وتفرح به الحقول، ويشم الناس فيه رائحة الحياة. لكنه انقلب عليهم عذاباً.

وحين تنقلب النعمة إلى عقوبة، يبلغ المشهد غاية الرهبة. فالكون ليس مجموعة قوى مستقلة، بل جندٌ يجري بأمر الله. الماء الذي يحيي هنا قد يهلك هناك، والبحر الذي نجا فيه موسى أغرق فرعون، والمطر الذي تنبت به الجنات صار على قوم لوط ختاماً للهلاك.

قال: (فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ). لم يفجأهم العذاب بلا بيان؛ كانوا منذرين. وقف لوط بينهم، وأوضح، وحذر، وصبر، حتى هددوه بالإخراج. فكانت كل كلمة رفضوها حجةً تسبق القطرة التي نزلت عليهم.

حين تكونُ النجاةُ في الخروج من المكان الذي ألفناه

لم تذكر سورة الشعراء تفاصيل ساعة الخروج كما وردت في مواضع أخرى، لكنها وضعت أماننا النتيجة: نُجِّي لوط وأهله المؤمنون، وبقي الآخرون.

وللخروج هنا معنى يتجاوز الانتقال الجغرافي. فقد يحتاج المؤمن إلى أن يخرج بقلبه من مناخ يفسد مقاييسه، ولو بقي جسده فيه بحكم الضرورة. يخرج من لغته، ومن تبريراته، ومن عادات النظر التي فرضها عليه. يحفظ بينه وبين المنكر مسافةً تمنعه من الذوبان فيه.

ليست كل إقامة انتماء، وليست كل مغادرة خيانةً للمكان. قد تكون مغادرة البيئة الفاسدة وفاءً للحقيقة التي خلقت من أجلها، وقد يكون البقاء فيها مع الرضا نوعاً من الغبور مع الغابرين.

لكن الخروج النبوي ليس هروباً جباناً من المسؤولية. لوط لم يخرج عند أول أذى؛ دعا، وبين، وصبر، وواجه، ثم خرج حين انتهى زمن البلاغ وجاء أمر الله. فثمة فرق بين من يترك ميدانه لأنه تعب من حمل الرسالة، ومن يغادره لأن مرحلة من التكليف انتهت وبدأت مرحلة النجاة.

إن المؤمن لا يقدس المكان لذاته؛ فالأرض لله، والموطن الحقيقي هو الموضع الذي يستطيع فيه أن يحفظ عهده مع الله. وإذا صارت المدينة تطلب منه أن يبيع ضميره ثمناً للإقامة، فقد أصبح الخروج منها نوعاً من العودة إلى نفسه.

ثم نُختم القصة بالنبض الذي يملأ السورة:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً^ط وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

العزیز: فلا تستطيع مدينة كاملة أن تغیر ميزانه، ولا يحیی الإجماع البشري باطلاً من حكمه.

الرحیم: إذ أرسل لوطاً قبل العذاب، وأنذرهم، وفتح لهم باب العودة، ثم نجى نبيه وأهله المؤمنين.

وفي قصة لوط تتجلى حقيقة شديدة الصلة بكل عصر: أن الفطرة قد تُحاصر، لكنها لا تتحول باطلاً؛ وأن المنكر قد يملك المدينة، لكنه لا يملك ميزان السماء؛ وأن الطاهر قد يبدو غريباً، غير أن غربته ليست علامة ضلاله، بل قد تكون الشهادة الأخيرة على أن العالم من حوله هو الذي ابتعد عن الطريق.

فالحق لا يفقد نوره حين يقل حاملوه، والطهر لا يصبح عيباً حين تسخر منه الشبوات، ومن كان معه العزیز الرحیم فليس وحيداً، وإن أخرجته مدينة بأسرها.

أصحاب الأيكة: حين يدخل الفساد إلى الميزان

(كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ؑ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾).

تصل السورة إلى السوق.

بعد فساد العرش، والمعبد، والعمران، والشهوة، تكشف فساد المعاملة الاقتصادية؛ ذلك الفساد الهادئ الذي لا يريق الدماء في الشوارع، لكنه يقتطع من حياة الناس وحقوقهم كل يوم.

وسُموا أصحاب الأيكة؛ والأيكة الشجر الملتف، فكأنهم كانوا يعيشون في أرض ذات ظل وخضرة وخصب. غير أن جمال البيئة لا يضمن جمال الضمير، كما أن خصوبة الأرض لا تمنع جفاف الروح.

واللافت أن السورة قالت: (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ؑ)، ولم تقل هنا: أخوهم شعيب، كما قالت في سائر المقاطع: (أَخُوهُمْ نُوحٌ)، و** (أَخُوهُمْ هُودٌ)، و (أَخُوهُمْ صَالِحٌ)، و (أَخُوهُمْ لُوطٌ)** . وفي ذلك تناسق مع نسبتهم هنا إلى الأيكة، لا إلى مدين التي كان شعيب أخاهم في النسب.

ومع اختلاف الصياغة بقي النداء واحداً:

(أَلَا تَتَّقُونَ).

فالتقوى لا تتقف عند باب المسجد ثم تترك الإنسان في متجره. لا معنى لخشوع في الصلاة يقابله غش في الميزان، ولا لذكر يملأ اللسان ويد تقطع حقوق الناس.

إن السوق من أدق ميادين العبودية؛ لأن الإنسان هناك يواجه إغراء الربح، ويجد دائماً طريقة لتبرير الزيادة لنفسه والنقص على غيره. وقد يبدو الفرق في الميالك قليلاً، لكنه في ميزان الأخلاق يكشف سؤالاً كبيراً: أيهما أعظم في قلبك، أمر الله أم منفعة اللحظة؟

وقال شعيب: (إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ). والأمانة هنا تلامس موضع الداء مباشرة؛ فكيف تستقيم سوق فقدت الأمانة؟ وكيف يبقى مجتمع إذا صار كل واحد فيه يحاول أن يأخذ أكثر مما يعطي؟

فالاقتصاد ليس أرقاماً جامدة، بل شبكة أخلاقية. كل معاملة تحمل تصوراً عن الإنسان: أتراه أخاً له حق، أم فرصة يمكن استغلال جهله وحاجته؟ وحين ينهار الصدق لا ينهار عقد واحد فقط، بل تنهار الثقة التي يقوم عليها العمران كله.

وأعلن شعيب أنه لا يطلب أجراً؛ ليقول بوجوده قبل كلامه: أنا لا أحذركم من الطمع وأنا أطمع فيما في أيديكم. إنني أريد تحرير أموالكم من الظلم، لا نقلها إلى جيبي.

أوفوا الكيل: التوحيد في تفاصيل المعاملة

(أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿٢﴾ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ).

يبدأ الإصلاح بكلمة دقيقة: (أوفوا).

لا تعطوا جزءاً يبدو قريباً من الحق، بل أدوا الحق وافياً. فالأمانة لا تقبل التقريب حين يتعلق الأمر بحقوق الناس. وما قد تراه نقصاً يسيراً في صفقة واحدة، يتكاثر حين يصبح ثقافة عامة حتى يصنع نظاماً كاملاً من الظلم.

ثم قال: (وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ). لم يقل: لا تُنقصوا الكيل فقط، بل حذرهم من أن يصير الإخسار صفةً لهويتهم؛ أن يصبح الإنسان ممن لا يتعامل مع أحد إلا خرج الآخر من يده ناقص الحق.

والمخسر لا يسرق المال وحده؛ قد يخس العامل أجره، والكاتب فكرته، والمبدع فضله، والإنسان كرامته. قد يعطيك شخصٌ عملاً كاملاً فتعطيه تقديراً ناقصاً، أو يصنع معك معروفاً فتخفيه لأن الاعتراف بفضله يزعج غرورك.

ثم قال:

(وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ).

ليست الاستقامة وصفاً للميزان المادي وحده، بل للضمير الذي يمسكه. فقد تكون الأداة دقيقة، ويتحایل صاحبها على النتيجة. والقسطاس المستقيم أوسع من كفتين؛ إنه معيار داخلي يرفض أن يجعل الإنسان لنفسه ميزاناً ولغيره ميزاناً آخر.

كم وزن أخطاء من نحب بخفة، وأخطاء من نكره بثقل! نبث للأول عن الأعذار، ونبحث للثاني عن الإدانة. نريد حقوقنا كاملة، ثم نستقل حقوق الآخرين. نتألم إذا بُخس جهدنا، ولا نشعر حين نبخس جهودهم.

إن التوحيد يعيد الموازين كلها إلى استقامة واحدة؛ لأن ربك ورب من تعاملهم واحد، والعدل الذي أمرك به لا يتغير بتغير أسمائهم.

ثم جاءت العبارة الأوسع:

(وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ).

ما أرحب كلمة (أَشْيَاءَهُمْ)!

لم تقل: أموالهم فقط. كل ما ثبت للإنسان من حق فلا تنقصه: ماله، وأجره، ومكانته المستحقة، وكلمته، ووقته، وفضله، ونسبته إلى عمله، وحقه في الإنصاف.

قد يكون البخس أحياناً كلمةً محذوفة من الثناء، أو جهداً ينسبه إنسان إلى نفسه، أو فضلاً يخفيه الحسد، أو صورةً مشوهة يقدم بها المرء خصمه حتى يمنعه حقه في الفهم العادل.

إن الحسد ببخس باطني؛ لأنه يرى النعمة على غيره ثم يرفض أن يعترف بها. والظلم الفكري ببخس؛ لأنه يقتطع كلام الإنسان من سياقه ويحمّله ما لم يقل. والجنود ببخس؛ لأنه يحو المعروف بعد وقوعه.

وحين ينتشر البخس لا يبقى فساداً فردياً:

(وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ).

فالفساد الكبير يتكون من نقائص صغيرة كررها الناس حتى صارت نظاماً. حبة تُنقص من ميزان، وأجر يُؤخر، ووعد يُخلف، وحقيقة تُخفى، حتى يفقد المجتمع ثقته، ويعيش كل فرد فيه متحفزاً للاحتيال قبل أن يُحتال عليه.

وحينئذ لا يعود السوق مجال تبادل، بل ساحة اقتراس؛ يحاول كل طرف أن يسبق الآخر إلى الخديعة.

المحطة الأربعون

واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين

(وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ).

أعادهم شعيب من الميزان الذي في أيديهم إلى الخالق الذي خلق الأيدي ومن قبلها الأمم الماضية.

(الْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ): الخلائق والأمم السابقة، تلك الجموع التي ملأت الأرض قبلهم ثم صارت آثاراً وأخباراً. وكأن شعيباً يقول: أنتم لستم أول من امتلك السوق والمال والقوة، ومن سبقكم كان أشد حضوراً في زمانه، ثم مضى إلى ربه.

إن تأمل الأجيال الماضية يحرر الإنسان من وهم المركزية. كل جيل يظن أن العالم بدأ معه، وأن نظامه بالغ الرسوخ، وأن حياته هي الصورة النهائية للوجود. ثم ينقضي، ويحيى بعده من يمشي فوق أرضه ولا يعرف أسماء أكثر أهله.

والذي خلقك قادر على أن يستبدل بك، والذي خلق الأمم الأولى يعلم كيف انتهت حين فسدت موازينها. فلا تجعل امتداد السوق وضجيج التجارة يحجبان عنك هدوء المقبرة التي انتهى إليها تجار كثيرون قبلك.

لكن القوم لم يناقشوا عدالة ما دعاهم إليه، بل قالوا:

(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ).

تكرر التهمة نفسها؛ فخطاب الباطل فقير رغم تغير العصور. إذا عجز عن رد الحقيقة، طعن في عقل قائلها، ثم في بشرته، ثم في صدقه.

قالوا: **(إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ)**. لم يملكوا يقيناً بكذبه، لكن الظن حين يخدم المصلحة يتحول في النفس إلى موقف حاسم. إنهم لا يريدون التحقق؛ لأن صدقه سيكلفهم التخلي عن أرباح محرمة صارت جزءاً من نظام حياتهم.

وهنا نرى أن العقبة أمام الإيمان ليست فكرية دائماً. قد يفهم الإنسان الدليل، لكنه يعرف أن قبوله سيعيد توزيع مصالحه. وكم من فكرة باطلة بقيت لا لقوة حجتها، بل لأنها تحرس أرباحاً ومواقع وامتيازات!

إن ميزاناً مائلاً قد يقاوم النبوة أكثر مما يقاومها صنم؛ لأن الصنم يقيم في المعبد، أما الميزان المائل فيدر المال كل يوم.

طلبوا العذاب صورة... فجاءهم حقيقة

قالوا لشعيب:

(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

بدل أن يطلبوا الهداية، طلبوا قطعة من السماء تسقط عليهم. وهذا غاية ما يبلغه الاستهزاء: أن يحول الإنسان الإنذار إلى تحدٍّ، ويطلب بالعذاب كما لو كان يستعجل حجة في مناظرة.

إن طول الإمهال قد يمنح القلب الغافل جرأةً مرعبة. يسمع الوعيد ولا يقع في اللحظة، فيظن أنه لن يقع أبداً. ثم لا يكتفي بالتكذيب، بل يستعجل ما ينبغي أن يستعبد بالله منه.

قال شعيب:

(قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ).

لم يقل: سأسقط عليكم العذاب، فهو رسول لا يملك خزائن العقوبة. أعاد أمرهم إلى الله الذي يعلم أعمالهم ظاهرها وخفيها، ويعلم متى تستوفي الحجة غايتها، ومتى يحين الجزاء.

وفي الجواب سكون العارف بحدوده. لا يستفزّه التحدي حتى يدعي ما ليس له، ولا يدفعه التكذيب إلى استعجال أمر الله. إنه يبلغ، ثم يسلم التوقيت والحكم لمن يعلم.

(فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ).

طلبوا كسفاً من السماء، فجاءهم عذاب يوم الظلة. بدت لهم السحابة أول الأمر مظلةً تقيهم الحر، واجتمعوا تحتها يرجون الراحة؛ فإذا بما حسبوه رحمةً يحمل نهايتهم.

إن الباطل يخطئ قراءة العلامات حتى اللحظة الأخيرة. قد يرى مقدمات الهلاك نجاةً؛ لأن ميزانه الداخلي فاسد. ليست الأزمة في العين وحدها، بل في القلب الذي يفسر ما تراه العين.

والظلة صورة مهيبة: شيء يعلوهم فيحسبونه ساتراً، ثم يصبح العذاب نازلاً من فوقه. فالإنسان قد يحتمي بما يهلكه، إذا اختار مأواه بعيداً عن الله.

قال: (فَأَخَذَهُمْ). والأخذ يدل على قوة لا يستطيع المأخوذ الإفلات منها. كانوا يأخذون من أموال الناس بغير حق، حتى جاءهم أخذٌ لا يملكون دفعه. بنحسوا انخلق أشياءهم، فإذا بحياتهم كلها تُنتزع منهم.

وهكذا تناسب النهاية مع حقيقة الجريمة: من بنى وجوده على النقص من حقوق الآخرين، انتهى وقد خسر كل شيء.

السوق الذي انهار لأن الضمير انهار أولاً

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةًٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَھُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

تأتي اللازمة بعد قصة شعيب لتعلن أن الاقتصاد ليس خارج سلطان الله. فرب العالمين هو رب الميزان أيضاً، والعدل في السوق عبادة، والغش معصية لا يحوها مظهر التدين.

العزیز: يأخذ المجتمع حين يتحول البخس فيه إلى نظام، فلا تجميه ثروته ولا خبرته التجارية.

الرحیم: أرسل شعيباً، وعلّمهم طريق الإصلاح في كلمات واضحة: أوفوا، وزنوا بالقسط، ولا تبخسوا، ولا تفسدوا.

لم يطلب منهم أن يهجروا التجارة، بل أن يطهروها. لم يقل: لا تربحوا، بل قال: لا تجعلوا الربح ابناً للظلم. فالإسلام لا يعادي حركة المال، وإنما يريد أن تجري كما يجري الدم السليم في الجسد: تحمل الحياة إلى الأعضاء كلها، لا أن تتجمع في موضع حتى تقتل بقية الجسد.

وقصة أصحاب الأيكة تقول للإنسان المعاصر إن فساد الاقتصاد ليس خطأ حسابياً، بل خلل في تصور الوجود. من أيقن أنه سيلقى الله، لم يستطع أن يبني رخاءه على حرمان غيره. ومن عرف أن رزقه من رب العالمين، لم يحتج إلى أن يسرق نصيبه من موازين الناس.

وتقول كذلك إن المجتمعات لا تسقط فقط حين تهزم في الحروب؛ قد تسقط ببطء حين يفقد أفرادها الثقة بعضهم ببعض، وحين يصبح الغش ذكاءً، والوفاء سذاجةً، والبخس مهارةً تجارية، والإفساد إصلاحاً معلناً.

عندئذ يكون العذاب قد بدأ في الداخل قبل أن تأتي الظلة؛ لأن المجتمع الذي لا يأمن فيه الإنسان على حقه يحمل في أعماقه بذرة انهياره.

المحطة الثالثة والأربعون

موكبٌ واحد... ومرضٌ يتبدلُ وجهه

ها نحن نخرج من مواكب القصص السبعة، فنرى أنها ليست جزراً منفصلة، بل نهر واحد من المعنى.

كان فرعون يعبد السلطة.

وكان قوم إبراهيم يعبدون الموروث.

وكان قوم نوح يعبدون الطبقة.

وكانت عاد تعبد القوة والعمران.

وكانت ثمود تعبد الأمان المادي، وتطيع المسرفين.

وكان قوم لوط يعبدون الشهوة حين جعلوها فوق الفطرة.

وكان أصحاب الأيكة يعبدون الربح حين قدموه على العدل.

تغيرت الأصنام، وبقي جوهر الوثنية واحداً: أن يمنح الإنسان شيئاً من الخلق مقاماً لا ينبغي إلا للخالق؛ فيطيعه بلا حد، أو يخشاه بلا حد، أو يرجوه بلا حد، أو يجعل حكمه فوق حكم الله.

وتكرر خطاب الأنبياء لأن طريق النجاة واحد:

(أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) .

تقوى تحرر القلب من سلطان الهوى.

وأمانة تحفظ الحقيقة من التبديل.

وطاعة تصل الإنسان بالوحي.

وإخلاص يحرر الداعية من ابتزاز الناس.

ثم تكررت الخاتمة:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً^ط وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) .

كأن السورة كانت تعيد بهذه اللازمة تثبيت قلب النبي ﷺ بعد كل مشهد: يا محمد، إن تكذيب قومك ليس حدثاً خارج سنن الرسالة. لقد كُذِّب موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب، ولم يكن تكذيبهم دليلاً على ضعف الحق.

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ): فلا تجعل الكثرة ميزانك.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ): فلا تجعل قلة الناصرين مصدر خوفك.

فأنت لا تقف بقوة العدد، بل بمعية العزيز. ولا تحمل الرسالة بقسوة الانتقام، بل بروح الرحيم.

وإذا كانت القصص قد كشفت مصائر المكذبين، فإن السورة ستعود الآن إلى الحقيقة التي بدأت بها: هذا القرآن الذي يحمل تلك الأنباء، من أين جاء؟ ومن الذي نزل به؟ وعلى أي قلب استقر؟ ولماذا يستحيل أن يكون من حديث الشياطين أو من صناعة شاعر؟

لقد انتهى موكب التاريخ، لتبدأ المحطة الكاشفة عن مصدر الكلمة التي روت التاريخ كله.

المحطة الرابعة والأربعون

القرآن الذي نزل على القلب

بعد أن طافت السورة بنا في مدائن الأنبياء، ووقفت بنا على أبواب القصور والمعابد والأسواق والبيوت، تعود إلى أصل الحكاية كلها:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٣﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿٤﴾).

هذا القرآن ليس صدى تجربة بشرية، ولا انفعال شاعر أمام الوجود، ولا حكمة أرضية ارتقت حتى لامست السماء؛ إنه تنزيل رب العالمين.

الرب الذي أعلن موسى ربوبيته في وجه فرعون، وعزّف به إبراهيم قومه، وجعل الأنبياء أجرهم عليه وحده، هو الذي نزل هذا القرآن. ولذلك تجري في كلماته عظمة المصدر: يتحدث عن الملوك فلا ترهبه عروشهم، وعن الأمم فلا تخدعه كثرتهم، وعن الزمن فلا تحجبه اللحظة الحاضرة عن النهاية.

قال: (تَنْزِيلُ)؛ ليكشف اتجاه الحركة: لم يصعد هذا الكتاب من الأرض، بل نزل من عند الله. وكلما أدرك القلب علو مصدره، خرج من وهم محاكمته إلى أهواء العصر. فالزمن يفهم في ضوئه، ولا يُعاد تشكيله ليطابق تقلبات الزمان.

ثم قال:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ).

حملة جبريل عليه السلام؛ روحٌ يحمل إلى الأرواح حياتها، وأمينٌ لا يزيد في الرسالة ولا ينقص. فطريق الوحي كله طريق أمانة: من رب العالمين، إلى الروح الأمين، إلى قلب الرسول الأمين ﷺ.

لا ثغرة يدخل منها التحريف، ولا هوى يتسلل إلى النص، ولا خيال يمزج كلام الإنسان بكلام الله. إننا أمام كلمة محفوظة في مصدرها، وأدائها، ومستقرها.

والعجيب قوله:

(عَلَى قَلْبِكَ).

لم يقل: على سمعك أو ذاكرتك، بل على قلبك. فالقرآن لم يكن معلومات أودعت في ذهن النبي ﷺ، وإنما نوراً استقر في قلبه حتى صار خُلُقَه وحياته ومصدر رؤيته.

إن القلب موضع التلقي؛ لأن المعرفة القرآنية لا تبلغ كمالها حين تُحفظ ألفاظها فقط، بل حين تتحول إلى بصيرة وإرادة وخشية. قد تمتلئ الذاكرة بالآيات ويبقى القلب بعيداً عنها. أما إذا نزل القرآن على القلب، أعاد ترتيب الحب والخوف والرجاء، ثم تحركت به الجوارح.

ولا يعني نزوله على القلب أنه خطاب عاطفي منفصل عن العقل؛ فالقلب في البيان القرآني موضع الفهم العميق الذي نتصل فيه المعرفة بالموقف. العقل قد يدرك الحجة، لكن القلب هو الذي يصدق بها أو يبجدها، ويخضع لها أو يستكبر عليها.

(لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْذِرِينَ).

لم ينزل الوحي لينح صاحبه لذة المعرفة وحدها، بل ليحمّله مسؤولية البلاغ. كل نور حقيقي يحمل تكليفاً؛ فمن رأى الطريق صار مسؤولاً عن الدلالة عليه.

والإنذار ليس الوظيفة الوحيدة للرسالة، ولكنه ذكر هنا لأن السورة تخاطب قلوباً غارقة في الإعراض، تحتاج إلى من يهز عنها نومها. إنه جرس الرحمة حين تقترب النار.

ثم قال:

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ).

اختار الله للرسالة الخاتمة لساناً عربياً مبيناً؛ لغةً تسع لدقة التشريع، ورقة المناجاة، وقوة الحجّة، وجلال الغيب، وتصوير أدق خلجات النفس.

والبيان هنا ليس زينة مضافة إلى الحقيقة، بل جزء من طريقة حضورها. فالقرآن لا يلقي المعنى في قالب ميت؛ إنه يجعله مشهداً وصوتاً وحركةً. لا يقول إن الباطل زال

فحسب، بل يقول عن عصا موسى: (تَلَقَّفْ مَا يَأْفِكُونَ). ولا يخبر أن قوم نوح غرقوا مجرد إخبار، بل يضع أماننا الفلك المشحون، ثم يطوي الباقي تحت الماء.

وهذا البيان نفسه سيقود السورة إلى الحديث عن الشعراء؛ لأن القضية ليست هل الكلام جميل، بل: من أين يستمد جماله؟ وإلى أين يقود سامعه؟

المحطة الخامسة والأربعون

الحقيقة التي تعرفها الكتب والقلوب المنصفة

(وَإِنَّهُ لَفِي زُرِّ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ).

لم يهبط القرآن مقطوعاً عن تاريخ الوحي، بل جاءت أصول خبره وصفة رسوله في كتب السابقين. فهو الحلقة الخاتمة في سلسلة النور، يصدق ما بقي من الحق قبله، ويهيمن عليه، ويعيد الرسالة إلى صفائها الأول.

إن الوحي لا يناقض نفسه؛ لأن مرسله واحد. تغيرت الشرائع في بعض تفاصيلها بحسب الأزمنة، لكن أصل التوحيد، وصدق النبوة، والبعث، والأخلاق الكبرى، ظل نهراً واحداً يمر في صحف الأنبياء.

وكان علم علماء بني إسرائيل به آيةً لقريش؛ لأن أهل المعرفة بالكتب السابقة يستطيعون أن يروا صلته بموكب النبوات. لكن المكذب قد يرفض شهادة الخبير إذا خالفت ما يريد، بعد أن كان يطالب بالدليل.

ثم تكشف السورة علةً أخرى وراء الرفض:

(وَلَوْ تَزَوَّاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۖ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ).

المشكلة ليست في عريية البيان، ولا في شخصية المتلقي؛ فلو نزل على رجل أعجمي ثم قرأه عليهم، لاتخذوا عجمته حجةً للرفض، كما اتخذوا بشرية الرسول حجةً من قبل.

إن القلب الذي اتخذ قرار التكذيب يصنع من كل صورة اعتراضاً. إن جاء الرسول من قومهم قالوا: نعرفه، فكيف اختير؟ وإن جاء من غيرهم قالوا: كيف نصدق غريباً؟ وإن كانت الآية عقلية طلبوا حسية، وإن جاءت الحسية سموها سحراً.

ليست الحجة عندئذ هي الناقصة؛ الناقص هو استعداد النفس للإنصاف.

ثم قال:

(كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۖ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ).

يمر القرآن في قلوبهم، وتدخل حجته إلى وعيهم، لكنهم لا يتلقونه بالإيمان؛ لأن الإجماع قد صاغ داخلهم على هيئة ترفض الحق. فالكلمة واحدة، لكنها تقع في القلوب بحسب ما أعدته القلوب لها.

الماء نفسه ينزل على أرض رخوة فتنبت، وينزل على صخرة فيجري فوقها. وليس النقص في الماء، بل في القابلية.

وهنا مسؤولية مخيفة: القلب يتشكل بأعمال صاحبه. كل مرة يتكبر فيها الإنسان على حق عرفه، يصنع في داخله طبقةً جديدةً من القسوة. وكل ذنب يبرره بدل أن يتوب منه يتحول من فعل خارجي إلى بنية باطنية. حتى يأتي وقت لا يعود فيه يرفض حجةً واحدة، بل يصبح رافضاً لطبيعة الحق نفسها.

ولا يؤمنون حتى يروا العذاب؛ لكنه إيمان لا ينفع، لأن الاختبار انتهى. فالإيمان الذي يريده الله اختياراً في زمن الغيب، لا اعترافاً قسري حين تصبح الحقيقة مشاهدة لا يمكن إنكارها.

المحطة السادسة والأربعون

العذابُ حين يأتي بغتةً... والأعمارُ التي لا

تدفعه

(فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢﴾ أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ).

كانوا يستعجلون العذاب استهزاءً، فإذا جاء بغتةً طلبوا التأجيل.

ما أغرب الإنسان: تُمنح له المهلة فيضيعها، فإذا انتهت عرف قيمتها. يعيش الساعات كأنها ملكه، ثم إذا أتاه الأجل تمنى ساعةً واحدة يعيد فيها ترتيب المصير.

(هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ): هل تمنح وقتاً إضافياً؟

لكنهم كانوا في الإنظار منذ وُلدوا. كل صباح تأخير، وكل إنذار فرصة، وكل آية باب، وكل نبضة مهلة. لم يكن ينقصهم الوقت، وإنما كانوا ينقصون من قيمة الوقت حتى انتهى.

إن الإنسان لا يحتاج دائماً إلى عمر جديد، بل إلى قلب جديد داخل العمر المتبقي. وإلا فقد يعيش سنوات أخرى بالطريقة نفسها، ثم يطلب عند نهايتها سنوات بعدها.

ثم قالت السورة:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿١﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ).

هذه الآيات تعيد تعريف الزمن كله.

لنفترض أنهم مُتَّعُوا سنين طويلة، وأن أبواب اللذة بقيت مفتوحة، وأن الصحة والمال والسلطان استمرت؛ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون. ماذا صنعت تلك السنين أمام المصير الأبدي؟

إن النعمة الماضية لا تمنع ألم العاقبة، بل قد تزيد الحسرة إذا عرف الإنسان أنه بددها بعيداً عن الله. ما قيمة مأدبة طويلة تنتهي بسم؟ وما قيمة طريق مفروش بالورد إذا كان يقود إلى هاوية؟

ليس المقصود تحقير نعم الدنيا، بل وضعها في حجمها. هي جميلة ما دامت جسراً إلى الشكر، ومباركة ما دامت في يد الإنسان لا في قلبه. أما إذا تحولت المتعة إلى حجاب عن المصير، فقد أصبحت الرقة التي تخفي تحتها السكين.

(مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ).

تسقط كل متع الدنيا أمام هذه الجملة. ما أغنى القصر عن فرعون، ولا الجبال عن ثمود، ولا الجنات عن أصحاب الأيكة. وما أغنى عن الإنسان ما جمعه إذا وقف بين يدي الله بقلب خالٍ من الإيمان.

إن قيمة النعمة لا تقاس بطول بقائها معك، بل بما حملت منها إلى آخرتك. قد يملك الفقير شيئاً قليلاً فيصنع به خالداً من البر، ويمتلك الغني كثيراً فلا يبقى له منه إلا الحساب.

المحطة السابعة والأربعون

لا هلاك قبل البيان

(وَمَا أَهْلَكَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿١٠٠﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ).

بعد كل مشاهد الهلاك التي مرت في السورة، تأتي هذه القاعدة لتكشف عدل الله: لم تؤخذ قرية بلا إنذار، ولم ينزل العذاب على قوم لم تُقم عليهم الحجة.

قبل البحر كان موسى.

وقبل الطوفان كان نوح.

وقبل الريح كان هود.

وقبل الصيحة كانت ناقة صالح ونذيره.

وقبل المطر كان لوط.

وقبل عذاب الظلة كان شعيب.

إن العذاب لم يكن انفجار قوة مجردة، بل خاتمة عدل سبقته رحمة طويلة. جاء المنذرون ذكرى؛ ليوقظوا ما دفنته الغفلة، ويعيدوا الإنسان إلى الحقيقة التي ابتعد عنها.

وقال: (وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ).

تنزه الله عن كل ظلم؛ فلا يعاقب بريئاً بذنب غيره، ولا ينقص أحداً حسنة، ولا يحل نفساً ما لم تقترب، ولا يغلق باب التوبة في وجه من جاءه صادقاً.

وحين نقرأ مصائر الأمم ينبغي ألا نقرأها بوصفها بطشاً منفصلاً عن الحكمة؛ بل عدلاً أمهل، ورحمةً أذرت، ثم حكماً جاء بعدما أصر المجرمون على اختيار النهاية.

إن الله لا يحتاج إلى تعذيب خلقه، ولا يزيد في ملكه هلاك أمة، لكنه سبحانه لا يسوي بين من أصلح ومن أفسد، ولا يجعل التاريخ بلا ميزان. ولو استوى الظالم والمظلوم في النهاية لكان الوجود نفسه عبثاً.

فالجزاء ضرورة أخلاقية قبل أن يكون مشهد رهبة. هو الإعلان الأخير أن دمة المظلوم لم تسقط خارج العلم، وأن صرخة المستضعف لم تضع في الهواء، وأن يد الجبار لم تكن حرةً كما توهمت.

لماذا لا تستطيعُ الشياطينُ حملَ القرآن؟

(وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١٠٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٠١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ).

بعد أن أثبتت السورة أن القرآن تنزيل رب العالمين، نفت عنه تهمة المكذابين: ليس من إلقاء الشياطين.

ونفت ذلك من ثلاث جهات:

(وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ): لم يقع هذا أصلاً.

(وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ): لا يلائم طبيعتهم ولا مقصدهم؛ فالقرآن يهدم سلطانهم، ويطهر القلب من وساوسهم، ويقيم الإنسان في عبودية الله.

(وَمَا يَسْتَطِيعُونَ): هم عاجزون عن بلوغ مقامه وحمله.

فالقرآن يدعو إلى التوحيد، والشيطان يدعو إلى الشرك؛ القرآن يقيم العدل، والشيطان يزين الظلم؛ القرآن يطهر الشهوة، والشيطان يطلقها؛ القرآن يرد الإنسان إلى ربه، والشيطان يريد قطعه عنه. كيف يحمل الباطل الكتاب الذي يكشفه، وكيف ينزل الظلام بالشمس التي تفضحه؟

ثم قال: (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ). لقد حُفظ مصدر الوحي، وعُزلت عنه الشياطين؛ فلا تختلط كلمة السماء بهمس الأرض.

وفي هذا طمأنينة للمؤمن: الدين الذي بين يديه ليس مزيجاً من نور وظلمة، ولا رسالةً شابها العبث في الطريق. الذي أنزله رب العالمين، والذي حمله الروح الأمين، والذي تلقاه قلب محمد ﷺ.

المحطة التاسعة والأربعون

التوحيد أول الطريق وآخره

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ).

الخطاب للنبي ﷺ، وهو أبعد الناس عن الشرك؛ لكن توجيهه إليه يرفع شأن التوحيد ويعلن أن أحداً لا يخرج عن سلطان التكليف. فإذا كان سيد الموحدين يُخاطب بهذا، فكيف بغيره؟

إن التوحيد ليس درساً أولياً يجاوزه المؤمن بعد أن يتعلمه، بل هو الحقيقة التي يبدأ منها ويعيش بها ويموت عليها. وكل ارتقاء إيماني ليس خروجاً من التوحيد إلى معنى أعلى، بل غوصٌ أعمق فيه.

والشرك ليس صنماً ظاهراً فقط؛ قد يتسلل في تعلق القلب، وفي طلب المنزلة، وفي الخوف من الناس، وفي تحويل الذات إلى مركز الوجود. ولذلك يحتاج المؤمن إلى تجديد توحيده، لا لأن عقيدته تتبدل كل يوم، بل لأن القلب تتنازعه مراكز كثيرة تريد أن تستولي على وجهته.

ثم انتقلت الرسالة من تثبيت الأصل إلى حركة البلاغ:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ).

ابدأ من الأقربين؛ لأن مسؤولية النور أشد تجاه من يحيطون بك. والدعوة التي تحلق في الآفاق وتعجز عن الصدق داخل البيت معرضة لأن تتحول إلى صورة عامة بلا جذر.

لكن إنذار الأقربين أصعب؛ فهم يعرفون تاريخك البشري، وقد تمنعهم الألفة من رؤية مقام الرسالة. والغريب قد يسمعك بفكرة جديدة، أما القريب فقد يجسك في صورتك القديمة.

ومع ذلك لا تمنح القرابة أحداً حصانة من الحق، ولا تسمح المحبة بأن نخفي عن أهلنا ما نعتقد أنه يخفيهم. الرحمة بالقرب ليست أن نجامله في طريق يؤذيه، بل أن نبغله بالطف ما نستطيع وأصدق ما نملك.

المحطة الخمسون

جناح الرحمة وظهر البراءة

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٠﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ).

ما أجمل الصورة: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ).

كأن الإيمان يمنح صاحبه جناحاً، لكنه لا يرفعه تكبراً على المؤمنين؛ يخفضه رحمةً بهم، ويضمهم تحت ظله. فالقائد الرباني لا يجعل سبقه إلى الحق سُلماً يستعلي به، بل سبباً لمزيد من الرفق.

وخفض الجناح لا يعني الضعف، بل القوة التي اطمأنت فلم تعد تحتاج إلى الاستعراض. المتكبر يرفع نفسه لأنه يخشى أن يراها الناس صغيرة، أما الواثق بالله فيستطيع أن يتواضع دون أن يشعر أنه يفقد قدره.

قال: (لَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ). هؤلاء الذين اختاروا الطريق، وحملوا أذى قريش، وخرجوا من حماية القبيلة إلى حماية العقيدة، لهم حق الرفق والقرب.

إن الجماعة المؤمنة لا تُبنى بالأوامر وحدها، بل بالجناح المخفوض، بالرحمة التي تشعر الفرد أنه ليس رقماً في صف، بل قلباً مصوناً في أسرة الإيمان.

لكن الرحمة لا تعني تمييع المسؤولية:

(فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ).

لم يقل: إني بريء منكم، بل (مِمَّا تَعْمَلُونَ). البراءة من المعصية لا تحو حق الإنسان في النصيح، كما أن الحب لا يجعلنا شركاء في الخطأ.

هكذا يجمع المنهج القرآني بين دفء الجناح وصلابة الموقف. لا قسوة تطرد الناس عند أول عثرة، ولا محاباة تسكت عن انحرافهم. يُحتضن الإنسان، ويُرضخ الخطأ؛ لأن أفضل الرحمة ما أعان صاحبها على الخروج من معصيته، لا ما جعلها مريحةً في عينه.

التوكلُ على من يراك حين تقوم

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢﴾ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٣﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

بعد هذا التكليف الثقيل - إنذار القريب، واحتضان المؤمن، والبراءة من المعصية - تأتي الكلمة التي يحمل بها النبي ﷺ كل ذلك:

(وَتَوَكَّلْ) .

ليست الرسالة محمولةً على كتفيك وحدك. افعل ما أمرت به، ثم أسند قلبك إلى العزيز الرحيم .

عاد الاسمان اللذان خُتمت بهما قصص الأنبياء كلها، لكنهما جاءا هنا أمرًا مباشرًا للنبي ﷺ بالتوكل. فالذي نصر المرسلين قبلك هو ربك، والذي أهلك مكذبيهم لم يفقد عزه، والذي نجَّى المؤمنين لم تنقطع رحمته.

توكل على العزيز حين يبدو الباطل أقوى.

وتوكل على الرحيم حين يثقل قلبك بحزن الناس.

ثم جاء العزاء الجميم:

(الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ) .

يراك حين تقوم إلى الصلاة، وحين تنهض بأعباء الرسالة، وحين تقف وحدك والمدينة نائمة. يرى ما لا يراه الجمهور: تعبك الخفي، وصدقك الذي لا تصفق له الحشود، والدمعة التي لم تجد عيناً بشريةً تشهدها.

إن الإنسان يستطيع أن يصبر على مشقة كبيرة إذا أيقن أن من يحب يراه. فكيف إذا كان الذي يراه هو الله؟

ما يضيع العامل ليس قلة الاعتراف البشري، بل نسيانه لنظر الله إليه. فإذا استقر في قلبه أن الله يراه، استغنى عن كثير من شهود الأرض. لا يعني هذا ألا يتألم من الجود، لكنه لا يجعل جودهم حكماً على قيمة عمله.

(وَتَقَبَّلَكَ فِي السَّاجِدِينَ).

يرى حركتك في الصلاة، أو تقلبك بين جماعة المؤمنين الساجدين، ويرى السجود الذي يمد الرسالة بقوتها السرية. فالذين يقفون أمام الطغاة في النهار يستمدون ثباتهم من انحنائهم لله في الليل.

كلما صدق السجود، تحرر الإنسان من السجود لغير الله. ومن وضع جبهته على الأرض لرب العالمين، صعب أن يضع ضميره تحت قدم مخلوق.

ثم قال:

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

يسمع ما تقول وما يقال لك، ويعلم ما في قلبك وما يخفونه. فلا كلمة ضاعت، ولا نية اختلعت عليه، ولا مظلمة تحتاج إلى شاهد خارج عليه.

على من تنزلُ الشياطين؟

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۖ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۚ يَقُولُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ).

بعد أن نفى الله تنزل الشياطين بالقرآن، أخبر عن البيئة التي تلائمهم: (كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ).

الأفَّاك كثير الكذب، يقلب الحقائق عن وجوهها؛ والأثيم غارق في الإثم. وهذه هي الأرض التي تجد فيها وساوس الشياطين قابليةً للنمو: لسان يحب الكذب، وقلب يألف المعصية.

إن الأرواح تتناسب مع ما تستقبله. الروح الأمين ينزل بالوحي على القلب الأمين، والشياطين تنزل على الأفَّاك الأثيم. ليست القضية كلمات تشابه في السمع، بل أوعية أخلاقية مختلفة من أصلها.

(يَقُولُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ)؛ يلتقطون ما يمكنهم استراقه، ثم يخلطونه بأكاذيب كثيرة. وهكذا يعمل التضليل دائماً: لا يصنع كذبه من فراغ كامل؛ يضع فيها ذرةً من حقيقة حتى تمر، ثم يبني حولها جداراً من الزيف.

والنفس قد تُخدع بالكذبة لأنها تحتوي جزءاً صحيحاً، فتغفل عن السياق الذي شوهه الناقل، وعن الأكاذيب التي أضيفت إليه. ولذلك لا يكفي أن يكون في الكلام شيء من الصواب؛ بل يجب النظر إلى أمانة قائله، وبنية خبره، والغاية التي يدفع إليها.

أما القرآن فليس حقيقةً صغيرةً محاطةً بالأكاذيب، بل حق من رب العالمين، حملة الروح الأمين إلى قلب أمين. وبين النبعين من الاختلاف بقدر ما بين الوحي والوسوسة، والنور والدخان.

المحطة الثالثة والخمسون

الشعراء: حين تفتن الكلمة صاحبها

(وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿١٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١١﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ).

هنا يظهر الشعراء الذين سُميت السورة باسمهم.

ولم يكن القرآن يحارب الشعر من حيث هو جمال، ولا الخيال من حيث هو قدرة إنسانية؛ فاللغة الجميلة نعمة، والصورة المبدعة وسيلة إلى كشف المعنى. وإنما يكشف نموذجاً من الشعر حين ينفصل البيان عن الحق.

(يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ): لأن الكلمة إذا لم تكن لها قبلة من truth تستطيع أن تقود جمهورها إلى أي اتجاه. تأثير العاطفة دون أن تمنحها بوصلة، وتشعل الحماسة دون أن تسأل: إلى أين؟

ثم صور حالهم:

(فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ).

إنها صورة فنية عجيبة: خيال يجري من وادٍ إلى وادٍ، لا يستقر على حقيقة، ولا يلتزم وجهة. يمدح الشاعر اليوم ما يهجو غداً، ويرفع الشخص حين يعطيه، ثم يهدمه حين يحرمه. الكلمة عنده ليست شهادةً للحق، بل مركبةٌ للانفعال والمصلحة.

والهيام في كل وادٍ هو انفصال الجمال عن المركز. فالموهبة قوية، لكنها بلا قبلة؛ واللغة أسرة، لكنها لا تعرف إلى أين تأخذ الأرواح.

ثم جاءت التهمة الأخلاقية:

(وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ).

ها هنا تفترق الكلمة القرآنية عن الكلمة الزائفة. القرآن يصنع حياة، أما هؤلاء فيصنعون صورةً لفظية لا يحملون تبعاتها. يتغنون بالشجاعة وهم أول الهاربين، وبالوفاء وهم أسرع الغادرين، وبالزهد وقلوبهم معلقة بالعطاء.

إن الكلمة حين تنفصل عن العمل تصبح نوعاً من التعويض النفسي؛ يقول الإنسان ما يمتنى أن يبدو عليه بدل أن يكونه. فيبني باللغة شخصيةً أجمل من حقيقته، ثم يسكن في إعجاب الناس بتلك الصورة.

وهذه الآية لا تخص الشعراء وحدهم؛ إنها ميزان لكل صاحب كلمة، وخطيب، وكاتب، ومفكر. قد تتحول البلاغة إلى ستار يخفي فجوةً بين النص وصاحبه. وكلما كانت العبارة أجمل، كان خطرها أكبر إذا لم يسندها الصدق؛ لأنها تمنح الوهم قدرةً على الإقناع.

إن جمال اللغة لا يبرئها أخلاقياً. قد تكون العبارة فاتنةً وهي تقود إلى باطل، كما قد يكون الكأس بديعاً وهو يحمل السم.

والكاتب المؤمن لا يسأل فقط: هل أبدعت؟ بل يسأل: إلى أي واد أخذت القارئ؟
ماذا صنعت كلمتي في قلبه؟ هل زادته بصيرة، أم منحته انفعلاً لذيذاً ثم تركته أشد
تِيهاً؟

المحطة الرابعة والخمسون

حين يؤمنُ الشعرُ ويعرفُ قبلته

لم تغلق السورة الباب على الشعراء جميعاً، بل فتحت الاستثناء الذي ينقذ الفن من
الغواية:

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا).

أربع دعائم تعيد الكلمة إلى معناها:

الإيمان يمنحها الرؤية.

والعمل الصالح يصل القول بالحياة.

وذكر الله كثيراً يحفظ الموهبة من عبادة ذاتها.

والانتصار بعد الظلم يجعل البيان سيفاً للحق، لا أداةً للبغي.

لم يقل القرآن: إلا الذين أحسنوا الوزن والقافية، مع أهمية الصنعة؛ لأن المشكلة لم تكن فنية في أصلها، بل أخلاقية ووجودية. قد يبلغ الشاعر ذروة المهارة ويكون غاوياً، وقد تصبح موهبته عبادةً حين تسكنها هذه الأركان.

أولها: (آمَنُوا).

فالإيمان يمنح الخيال سماءً صحيحة. لا يقتله، بل يطهره من التيه. ومن ظن أن العقيدة تقيد الإبداع فقد خلط بين البوصلة والقيد. البوصلة لا تمنع السفينة من الإبحار؛ إنها تمنعها من الضياع.

وثانيها: (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ).

لا يكفي أن يكتب الشاعر عن الفضيلة؛ عليه أن يضع قدميه في طريقتها. ليس المطلوب عصمة الأديب، فالإنسان يخطئ، وإنما ألا يجعل الكتابة بديلاً عن التزكية، وألا يكتفي بتصوير النور بينما يختار لنفسه الظلام.

وثالثها: (وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا).

فالموهبة تحمل فتنةً خفية: أن يرى صاحبها قدرته على تشكيل الكلام، فينسى من وهبه البيان. ويأتي الذكر ليعيد الكلمة إلى مصدرها؛ كلما أعجب الشاعر بصوته، ذكّره الله بمن خلق الصوت والمعنى واللغة.

ولم يقل: ذكروا الله مرة، بل (كَثِيرًا)؛ لأن الغفلة كثيرة، وإغراء المديح كثير، وتقلب الوادي كثير. فلا يثبت القلب أمام فتنة الكلمة إلا بذكر كثير.

ورابعها: (وَاتَّقُوا اللَّهَ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمْتُمْ).

فالكلمة المؤمنة ليست رخوة أمام الظلم. قد تهجو الباطل، وتفضح الجريمة، وتدافع عن المظلوم، وترد العدوان. ليس كل شدة في القول بغياً؛ قد تكون الكلمة القوية عدلاً يقاوم كلمة ظالمة.

والقيد دقيق: (مَنْ بَعْدَ مَا ظَلَمُوا). فالانتصار ردُّ للظلم، لا صناعة لظلم جديد. لا يجعل الشاعر مظلوميته رخصةً للكذب، ولا يتجاوز الحق في خصومته، ولا يسمح لحرارة الجرح أن تفسد ميزانه.

إن الأدب المؤمن لا يطلب من صاحبه أن يكون بارداً أمام الشر، بل أن يكون عادلاً حتى في غضبه، صادقاً حتى في معركته، ذا كراً لله وهو يرفع صوته.

وهنا يبلغ اسم السورة غايته: القرآن لا يهزم الشعر، بل ينقذه من الغواية. يرد الجمال إلى الحق، والخيال إلى الرسالة، واللغة إلى الأمانة. ويجعل الكلمة عملاً يسأل عنه صاحبها، لا طائراً يطلقه ثم يتبرأ من الجهة التي حمل الناس إليها.

المحطة الخامسة والخمسون

وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ

تختم السورة بهذه الآية المزلزلة:

(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ).

لا تفصل السورة المنقلب؛ لأن الإبهام هنا أشد رهبة. تترك الكلمة مفتوحة على مصير لا يحيط الخيال به: (أَيُّ مُنْقَلَبٍ).

وسيعلمون.

قد يجهلون الآن، أو يتجاهلون، أو يسخرون، أو يملكون من القوة ما يمنحهم فرصة صياغة الرواية. قد يسمون الظلم عدلاً، والخيانة حكمة، والبطش ضرورة، ويحيطون جريمتهم بالشعر والخطابة والدعاية.

لكنهم سيعلمون.

هذه السين الصغيرة تحمل يقين المستقبل كله. ليست النهاية موضع احتمال، وإنما زمن آتٍ. والظالم حين ينجو من محكمة الأرض لا يخرج من الوجود، بل يمضي إلى محكمة لا يضل قاضيا ولا ينسى.

وكلمة (يَنْقَلِبُونَ) تعيد الإنسان إلى معنى الرحلة: لا أحد مقيم في موضعه. فرعون انقلب من العرش إلى البحر، وعاد من الصروح إلى الريح، وثمود من الجبال إلى الصيحة، وأصحاب الأيكة من الظلة المرجوة إلى العذاب.

وكل ظالم يحمل في طريقه إلى منقلبه، وإن بدا ساكناً في سلطانه.

غير أن الآية ليست وعيداً للظالم وحده؛ إنها عزاء للمظلوم أيضاً. تقول له: لا تجعل الصورة الحاضرة خاتمة القصة. ما تراه فصلٌ لا كتاب، ومشهدٌ لا مصير. قد يعلم الظالم الآن، لكن جهة الانقلاب لم تظهر بعد.

فأثبت، لا لأن الألم قليل، بل لأن الله يعلم. ولا تجعل تأخر العدل يدفعك إلى الشك فيه؛ فقد تأخر البحر عن موسى حتى تراءى الجمعان، وتأخرت سفينة نوح حتى استنفذ التكذيب قروناً، وتأخر الأخذ عن عاد حتى قالوا: (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ).

الخاتمة

حين يهدأ ضجيجُ الشعراء ويبقى صوتُ الوحي

بدأت سورة الشعراء بقلب النبي ﷺ يكاد يذوب حزناً:

(لَعَلَّكَ بِأَخٍ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ).

وانتهت باليقين بأن الظالمين سيعلمون منقلبهم.

وبين الحزن واليقين مر موكب الرسالات كله ليقول للنبي ﷺ، ولكل حامل حق بعده: إن طريقك ليس غريباً، وإن وحدتك الظاهرة لا تعني أنك متروك، وإن كثرة المكذبين لا تنقص من الحقيقة شيئاً.

في السورة خاف موسى، ثم شق له البحر.

وسجد السحرة، فصار إيمانهم أقوى من الصليب.

وحطم إبراهيم أصنام المعنى قبل أصنام الحجر.

وبنى نوح سفينته في صحراء السخرية حتى صار الساخرون تحت الماء.

وشهدت عاد أن القوة بلا تقوى ریحٌ تنتظر موعدها.

وشهدت ثمود أن نحت الجبال لا يحجي قلباً عقر الآية.

وشهد قوم لوط أن الإجماع الاجتماعي لا يغير حقيقة الفطرة.

وشهد أصحاب الأيكة أن النقص اليسير في الميزان قد يكون باباً لانهيار أمة.

ثم ارتفع القرآن فوق القصص كلها شاهداً على مصدره:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ) .

هنا يتضح الفرق بين الوحي والشعر الغاوي: الشعر الغاوي يهيم في كل واد، أما القرآن فله صراط مستقيم. الشعر الغاوي يقول ما لا يفعل، أما القرآن فيبني الإنسان الذي يصير قوله عملاً. الشعر الغاوي يستثير العاطفة ثم يتركها بلا قبلة، أما القرآن فيوقف القلب ثم يقوده إلى الله.

وليست السورة خصومة مع الجمال، بل تحريراً له. تريد للكلمة أن تكون جميلةً وصادقة، مؤثرة ومؤتمنة، محلقةً ولكنها لا تضيع، قويةً ولكنها لا تظلم، منتصرةً ولكنها لا تكذب.

وهكذا تعيد سورة الشعراء ترتيب علاقة الإنسان بالكلمة: لا تسأل فقط عن بلاغتها، بل عن مصدرها ومقصدتها وأثرها. فرب عبارة أدهشت السمع وأفسدت القلب، ورب آية دخلت هادئةً فأعادت بناء الحياة كلها.

وتعيد ترتيب علاقته بالقوة: ليست القوة في عدد الجنود، فقد غرق فرعون؛ ولا في صلابة الحجر، فقد هلكت ثمود؛ ولا في كثرة الأنصار، فقد نجا القليل؛ وإنما القوة أن يكون قلبك موصولاً بالعزیز الرحيم.

وتعيد ترتيب علاقته بالنتائج: ليس عليك أن تُكره القلوب على الإيمان، ولا أن تستهلك روحك لأن الناس أعرضوا. عليك أن تبلغ بأمانة، وتصبر برحمة، وتعمل بصدق، ثم تثوكل على الذي يراك حين تقوم.

إن سورة الشعراء تقول لكل صاحب رسالة:

لا تحزن إذا كان الضجيج أكثر من صوتك؛ فالبحر كان أعلى من صوت موسى، ثم انشق.

ولا تيأس إذا بدا الباطل راسخاً؛ فالريح لا تحتاج إلى استئذان الصروح.

ولا تقس حَقَّك بعدد من يتبعك؛ فقد كان أكثر الأقسام مكذِّبين، وبقيت كلمة الأنبياء وغابت حضارات المكذِّبين.

ولا تجعل جمال العبارة يغنيك عن صدقها؛ فالكلمة التي لا يسندها عمل وذكر وإيمان قد تصبح وادياً من التيه.

ثم توكل على العزيز الرحيم:

العزيز الذي لا تضيع في ملكه حقيقة.

الرحيم الذي لا يغيب عن علمه قلبٌ أثقله الطريق.

وهذا تكتمل رحلتنا التدرية في سورة الشعراء، من الآية الأولى إلى خاتمتها؛ سورة بدأت بحزن النبوة على الإنسان، وانتهت بوعد السماء للمظلوم، وظل قلبها طوال الطريق يردد:

(وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

والحمد لله رب العالمين.